
@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
ما تبقى لكم

رواية

# غسان كنفاني

## ما تبقى لكم

منشورات الرمال



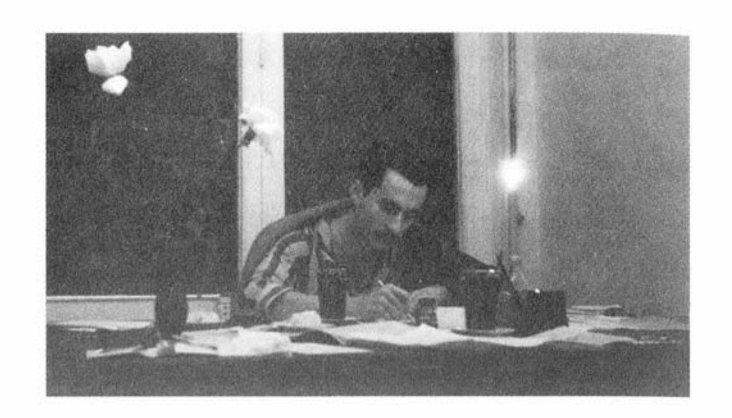
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-94-5

نشرت هذه الرواية في طبعتها الأولى سنة 1966
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما أدخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

# الإهداء

إلى «خالد».. العائد الأول

الذي ما يزال يسير

غ. ك.

# توضيح

الأبطال الخمسة في هذه الرواية، حامد ومريم وزكريا والساعة والصحراء لا يتحركون في خطوط متوازية، أو متعاكسة، كما سيبدو للوهلة الأولى، ولكن في خطوط متقاطعة تلتحم أحياناً إلى حدّ تبدو وكأنها تكوِّن في مجموعها خطين فحسب. وهذا الالتحام يشمل أيضاً الزمان والمكان بحيث لا يبدو هناك أي فارق محدد بين الأمكنة المتباعدة، أو بين الأزمنة المتباينة، وأحياناً بين الأزمنة والأمكنة في وقت واحد.

إن الصعوبة الكامنة في ملاحقة عالم مختلط بهذا الشكل، هي صعوبة معترف بها، ولكن لا مناص منها أيضاً إذا كان لا بد أن تقول الرواية ما اعتزمت قوله دفعة واحدة. ولذلك السبب لجأت إلى اقتراحٍ مطروق لتعيين لحظات التقاطع والتمازج والانتقال، والتي تحدث عادة دون تمهيد، وذلك عن طريق تغيير حجم الحروف عند النقطة المعنية.

إنه شيء لابد من الاعتراف به. إن تغيير حجم الحروف ذاك يعرقل جزءاً هاماً من عملية الانتقال التي كان لابد أن تحدث دون

وعي ودون إشارة، وستبدو كأنها ترتيب مقصود لعالم غير مرتب في الحقيقة، ولكن تجارب سابقة من هذا النوع أثبتت أن مثل هذا العمل هو شيء لا مفر منه.

**غ. ك.**

صار بوسعه الآن أن ينظر مباشرة إلى قُرصِ الشمس معلقاً على سطح الأفق، يذوبُ كشعلة أرجوانية تغطسُ في الماء، وفي اللحظة التالية غاصت الشمس كلها، وبدأت الخطوط المتوهجة التي خلفتها معلقة على حافة السماء، تتراجع أمام جدار أشهب صعد لامعاً بادئ الأمر، ثم تحول إلى مجرد طلاء ابيض.

وفجأة جاءت الصحراء.

رآها الآن لأول مرة مخلوقاً يتنفس على امتداد البصر، غامضاً ومريعاً وأليفاً في وقت واحد، يتقلّب في تموّج الضوءِ الذي أخذ يرمدّ منسحباً خطوة خطوة أمام نزول السماء السوداء من فوق.

واسعة وغامضة، ولكنها أكبر من أن يحبها أو يكرهها. لم تكن صامتة تماماً، وقد أحس بها جسداً هائلاً يتنفس بصوت مسموع. وفجأة انتابه الدوار وهو يغوّص فيها: أطبقت السماء فوقه بلا

ضجيج، وتراجعت وراءه المدينة حتى استحالت إلى نقطة سوداء في نهاية الأفق.

وأمامه، على مدّ البصر، تنفس جسدُ الصحراءِ فأحس بدنه يعلو، ويهبط فوق صدرها. وفي قلب الجدار الأسود الذي انتصب وراء الأفق أخذت المصاريع تنفتح واحداً وراء الآخر، فتنبثق وراءها نجومٌ ذاتُ لمعانٍ قاس.

عندها فقط عرف أنه لن يعود. وبعيداً وراءه غابت غزة في ليلها العادي، غابت مدرسته بادئ الأمر، ثم غاب بيته، وانطوى الشاطئُ الفضيُّ متراجعاً إلى قلب الظلام، وبقيت أضواء الشوارع معلقةً هنيهة، متعبة وواهنة، ثم انطفأت بدورها واحداً وراء الآخر، فخطا إلى الأمام تاركاً لخطواته أن تُصدرض فحيحاً مخنوقاً، مستشعراً ذلك الإحساس الذي كان يملأه دائماً حين كان يلقي بنفسه في أحضان الموج: قوياً وضخماً ويتدفق بصلابة لا تصدق ولكنه مملوءٌ، أيضاً، بالعجز المهيض الكامل.

وأخذ يغوص في الليل، مثل كرة من خيوط الصوف مربوط أولها إلى بيته في غزة، طوال ستة عشر عاماً لفوا فوقه خيطان الصوف حتى تحوّل إلى كرة، وهو الآن يفكها تاركاً نفسه يتدحرج في الليل: «كرر ورائي: زوجتك أختي مريم - زوجتك أختي مريم

- على صداق قدره - على صداق قدره - عشرة جنيهات - عشرة جنيهات - كله مؤجل - كله مؤجل.» ثم أخذت العيون تأكل ظهره وهو جالس أمام الشيخ. كل الذين كانوا هناك يعرفون أنه لم يزوّجها وأنها حامل، وأن الكلب الذي سيصبح صهره يجلس إلى جانبه يضحك في أعماقه بصوت مسموع.

كله مؤجل، طبعاً فالمعجل هو جنين يخبط في رحمها. وخارج الغرفة أمسكها من ذراعيها:

- لقد قررت أن أترك غزة.

وابتسمت فبدا فمُها الملطَّخ بالحمرة جرحاً دامياً انفتح فجأة تحت أنفها:

- أين ستذهب؟

قالتها وتركت فمها مفتوحاً كأنها تريد أن تقول له إنه لا يستطيع.

- سأذهب إلى الأردن، عن طريق الصحراء.

- تهرب مني؟

وهزّ رأسه:

- لقد كنت كل شيء، وأنت ملطخة وأنا مخدوع.. لو كانت أمك هنا.

وغداً ستقول لابن الحرام الذي ستضعه في فراشها:

- لو كانت جدتك هنا..

ثم يكبر ويتزوج وينجب ويقول لابنه:

- لو كانت جدتك الكبيرة هنا..

لو.. لو.. منذ ستة عشر عاماً، وهو يقول لها:

- لو كانت أمك هنا، إذا تشاجرا قال لها: لو كانت أمك هنا، إذا ضحكا، إذا انتابها الألم، إذا عجزت عن الطبخ، إذا طردوه من عمله، إذا وجد عملاً:

- لو كانت أمك هنا، لو كانت أمك هنا.

وأمه لم تكن هناك أبداً، على بعد ساعات من المشي، في الأردن، لم يستطع أحد أن يمشيها في ستة عشر عاماً، وقد عقد عزمه على أن يفعل ذلك حين كان يقول، دون أن يعي:

- زوجتك أختي مريم..

كان يلتهب، مبتلعاً مرارة حادة حتى معدته، إلاّ إنها رجعت خطوتين وهي لما تزل تبتسم تلك الابتسامة الدامية، ومن ورائها نبح الكلب، فقالت له:

- صهرك حامد يريد أن يترك غزة.

ولكنه لم ينظر إليه، وأجابها كأنه لا يعرفه، كأنه لا يقف هناك:

- حامد يقول أشياء كثيرة، اتركيه.

وفي اللحظة ذاتها تساءل: ترى أين حدث ذلك؟ ونظر إلى بطنها المكوّر برفق تحت الثوب وفكّر: ذات يوم ترك مدرسته بلا شك، أخذ إذناً من المدير، ربما قال له إن الصداع يحطم رأسه. دائماً يقول:

- الصداع يحطم رأسي.

وجاء إلى البيت أثناء غيابه عنه، وقد فتحت له ودخل. فك أزرار قميصها فيما تظاهرت بأنها لا تستشعر شيئاً.

- ولكن متى؟

واستدارت دون أن تقول شيئاً، وأخذت ترد على الضيوف دون أن تعي: عقبالك، وطارت كلمة عالية: مبروك - مبروك، وامتدت إليه أكف باردة فصافحها وهو ينظر إليها، طوال شهرين علك وهماً كان يلجأ إليه كلما اجتاحته حُمَّى الغيظ: يحمل سكيناً طويلة ويندفع إلى سريرها يكشف عن وجهها فتفتح محجريها تاركة الجنون يطلّ منهما، يمسكها من شعرها ويقول لها شيئاً موجزاً، ولكنه قاطع وواضح، وأحياناً لا يقول لها شيئاً، ينظر إليها فقط فتفهم كل شيء، ثم يطعنها طعنة واحدة في القلب تماماً، ويندفع إلى خارج الدار يبحث عنه. صهره. زوَّجتك أختي مريم على صداق قدره عشرة جنيهات كله مؤجل. صهره.

لقد تركته يلوثها، أعطته نفسها في ربع ساعة مسروقة منه، وحين زرع الطفل في رحمها كان قد أمسك به من عنقه:

- أنت حر، زوجنيها أو لا تفعل، فلست أنا الذي يخسر.

- ولكن لِمَ لمْ تقل أنك تريدها؟

هز رأسه فيما كان يبتسم ابتسامة تاجر شريف:

- هذا الذي حصل.

وأراد أن يقوم فيضربه، إلا إنه واصل الابتسام:

- أنت لا تريد ضربي، أليس كذلك؟ سيقولون إنك ضربت الرجل الذي...

كفى!!!

كان ضئيلاً بشعاً كالقرد، اسمه زكريا، وكان بوسعه أن يعتصره بين قبضتيه الكبيرتين، وأن يخنقه بمجرد الإطباق حول خصره، ولكنه كان عاجزاً، وكانت أخته مريم تتسمع وراء الباب والجنين يضرب في أحشائها، وحين غادر آخر الضيوف أغلق صهره الباب، وعاد كأن البيت بيته: خلع حذاءه وتمدد على المقعد، فبدا مجرد لطخة مصادفة في مكان غير مناسب، ثم تنهد وشبك كفيه وراء رأسه، وأخذ ينظر بارتياح مقيت إلى أشياء الغرفة. وأخيراً استقر بصره عليها فأخذ يتحدث فاتحاً فمه على وسعه:

- إذن يريد أن يذهب، يريد أن يعبر الصحراء.. لم يقل لي مبروك بعد، فأنا الآن صهره، ثم إني أكبر منه.

ثم نهض كأن المقعد قذفه وأخذ يتجول في الغرفه ناظراً إلى الأرض:

- إنه يهددنا يا مريم، فلماذا لا تقولي له إننا لا نكترث به؟

إلا إنها بقيت صامتة متكئة على الجدار كزوجة قديمة تتزوج مره أخرى، توقف ونظر إليها من جديد متخذاً وضع خطيب مؤثر:

- إن الصحراء تبتلع عشرة من أمثاله في ليلة واحدة، وأعطاه ظهره بحيث واجه مريم:

- عليه أولاً أن يجتاز حدودنا، ثم عليه أن يجتاز حدودهم، ثم حدودهم، ثم حدود الأردن، وبين هذه الميتات الأربع توجد مئات من الميتات الأخرى في الصحراء.. ألست متأكدة من أنه يمزح مزاحاً سخيفاً؟

ولكنها لم تجب، وبدا جو الغرفة خانقاً ومشدوداً، وحول ياقته انبثق خطٌ من العرق وسمع نفسه يلهث. كان يعرف تماماً أنه سيبدو سخيفاً إذا تكلم، ولكنه لم يستطع أن لا يفعل، فقام عن كرسيه واتجه إلى الباب بلا تردد، وفي اللحظة المناسبة استدار:

- سأغادر غداً مساء.

وأراد وهو يهبط السلم، أن يستمع إلى أي نداء، أن يلحقه صوت مريم: عد يا حامد! أن تصيح، أن تقول شيئاً، ولكنه لم يسمع إلا أصوات خطواته وهي تخفق على السلم. وقبل أن يصل الرصيف صُفِقَ الباب وراءه، دون أية كلمة، وساد الصمت.

سقط الظلام تماماً الآن وسقطت معه ريحٌ باردة صَفرت فوق صدر الصحراء، كأنها لهاث مخلوق ميت، ولم يعد يدري ما إذا كان خائفاً، فثمّة قلب واحد كان ينبض ملء السماء في ذلك الجسد المترامي على حافة الأفق. توقف هنيهة وحدَّق إلى السماء خيمةً سوداء مثقبة، وبدا له المدى غامضاً مثل هاوية، رفع ياقة معطفه وغرس كفيه في جيبيه الكبيرين. وفجأة ذاب الخوف وسقط، ولم يعد ثمة إلا هو والمخلوق الموجود معه، تحته، وفيه، يتنفس بصفير مسموع، ويسبح بجلال في بحر من العتمة المرصّعة. ومن بعيد ترامى إليه الهدير، فبدا له شيئاً متوقعاً تماماً، ليس بمقدور أي شئ في هذا المدى المبسوط أن يكون مفاجئاً، ليس بوسع أي شيء أن يكون إلا صغيراً وواضحاً وأليفاً في هذا العالم الواسع المفتوح على وسعه أمام كل شيء، لقد بدا الهدير في البدء قادماً من الجهات الأربع، ثم ما لبث أن اتضح. ومن بعيد مسح خط مستقيم من الضوء حافة الأفق مثل عصا بيضاء تدور على طرفها نصف دورة،

وفي اللحظة التالية أطلت من بعيد عينان مضيئتان أخذتا تهتزان وهما تنثران حولهما ضوءاً دائرياً. ودون أن ينتابه خوف أو تردد استلقى على الأرض وأحس بها تحته ترتعش كعذراء، فيما أخذ شريط الضوء يمسح ثنيات الرمل بنعومة وصمت، عندها فقط شد نفسه إلى التراب وأحسه دافئاً ناعماً، وفجأة تعالى الهدير وصارت السيارة أمامه تماماً، فغرس أصابعه في لحم الأرض وذاق حرارته تسيل إلى جسده، وبدا له أنها تنفست في وجهه فلفح لهاثُها المستثار وجنتيه، وشد إليها فمه وأنفه، فاشتد الوجيب الغامض فيما استدارت السيارة فجأة، فالتمع الضوء الأحمر في مؤخرتها وأخذ يذوب في الليل. زوجتك أختي مريم - أراح وجنته فوق صدرها الدافئ مرة أخرى فيما أخذت نسمات باردة تغسله، تلاشى الآن الضوء الأحمر تماماً، كأن يداً أطفأته عنوةً - لو كانت أمي هنا.. لو كانت أمي هنا - استدار ومرّر شفتيه فوق التراب الدافئ: ليس بمقدوري أن أكرهك، ولكن هل سأحبك؟ أنت تبتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة - إنني أختار حبك، إنني مجبر على اختيار حبك، ليس ثمة من تبقى لي غيرك. **ليس ثمة من تبقى لي غيرك... وأنت تبدو بعيداً، رغم أنك في فراشي.. تتركني وحدي أحصي تلك الخطوات المعدنية الباردة تدق في الجدار. تدق.**

**تدق. تدق. داخل النعش الخشبي المعلق أمام السرير - لقد اشتراها هو وحملها من السوق في تموز ما، وحين وصل إلى الباب لم يستطع تناول المفتاح من جيبه، كان يحملها بذراعيه وكانت، كما قال لي، ثقيلة جداً. فوقف أمام الباب محتاراً وطفق يفكر، ثم ما لبث أن نسي نفسه هناك وظل واقفاً حتى أتيت، وحين نظر إليّ كان يتصبّب عرقاً ولكنه لم يكن غاضباً، وقال لي: لماذا تأخرت؟**

- لم أتأخر.. ما هذا؟

ونظر إليها بين ذراعيه:

- ساعة حائط، ولكنها تشبه نعشاً صغيراً، أليس كذلك؟

ودخلنا فاتجه مباشرة إلى الغرفة التي كنا ننام فيها، كان المسمار الكبير مثبتاً مباشرة أمام سريره فعلقها وأنا أسند له الكرسي. ثم نزل وابتعد وأخذ ينظر إليها برضى، إلا إنها لم تتحرك. فكر قليلاً، فقلت له:

- ربما تحتاج إلى تعبئة.

فرفع رأسه نافياً وقال:

- أعتقد أنها ليست مستقيمة. إن ساعة الحائط ذات الرقاص لا تشتغل إذا كانت مائلة.

وصعد إلى الكرسي مرة أخرى وأخذ يحركها ببطء وكأنه يصوبها

تصويباً. وفي اللحظة التالية بدأت تدق، ولاحظنا معاً أن دقاتها المعدنية تشبه صوت عكاز مفرد. وحين أعاد الكرسي إلى مكانه سألته السؤال الذي كان يتوقعه:

- بكم اشتريتها؟

وأجابني الجواب الذي لم أكن اتوقعه:

- لم أشترها، سرقتها.

ومنذ ذلك اليوم وهي معلقة هناك، تدق خطواتها الباردة كصوت عكاز مفرد بلا توقف. تدق. تدق. تدق. يا زكريا. تدق. والآن ليس لي غيرك وغيرها، وقد تركناه يغادرنا كلنا دون كلمة واحدة، وحين كنت أسمع أصوات خطواته تخفق، مترددة، فوق السلم حسبت أنه سيعود وكنت ممزقة بينه، هو الماضي كله، وبينك، أنت ما تبقى لي من المستقبل، ولكنني لم أتحرك وأنت لم تتحرك. وهو لم يعد، ثم خطوت وصفقت الباب فأغلقت كل شيء. ومضيت إلى الغرفة الأخرى، وحين لحقتُ بك أكدت لي أنه سيعود وأنه أصغر من أن يقتحم الصحراء وحـده، وأنه سيكتشف بنفسه تفاهة الموضوع الذي سمح له أن يتغلب على عقله.

لو كانت أمي هنا لكان لجأ إليها، للجأتُ إليها أنا، لقلنا كلمة واحدة عنه. لما تركنا لدفتيّ الباب الخشبيتين أن تمحواه محواً من

هذا البيت بمجرد انغلاقهما.

مع صبيّ الخبّاز تسلمتُ منه أول الكلمات وآخرها: سأغادر مع غروب شمس اليوم وسأكتب لك من الأردن - إذا وصلت.

ثم جاء التوقيع الصغير: «حامد» مكتوباً بهدوء تماماً كما كان يكتبه على قفا علبة تبغه حين كان يغادر البيت لسبب من الأسباب: «سأعود بسرعة - حامد»، ثم يترك العلبة متكئة فوق الراديو. كان يعرف أنني أتجه إلى الراديو أول ما أصل إلى البيت. ولكننا خدعناه يا زكريا. خدعناه. لنعترف بذلك. إنه بعيد الآن، يسير منذ ثلاث ساعات على الأقل، وخطواته واحدة واحدة أحصيها مع الدقات المعدنية المخنوقة في الجدار، أمامي. دقّات النعش. **دقات محشودة بالحياة يقرعها بلا تردد فوق صدري حيث لا صدى، ثمة، إلا الرعب. وهو يخطو فيبدو أمام الجدار الأسود المرتفع وراءه مباشرة حيواناً ضئيلاً يعقد العزم على رحلة دفء لا نهاية لها، مشحونة بالغيظ والأسى والاختناق وربما الموت، أغنية الليل الوحيدة في جسدي. منذ اللحظة التي أحسست فيها بخطوته الأولى على الحافة عرفت أنه رجل غريب. وحين رأيته تأكدت من ذلك. كان وحيداً تماماً بلا سلاح، وربما بلا أمل أيضاً، ورغم ذلك فعند لحظة الرعب الأولى، قال أنه يطلب حبي لأنه ليس باستطاعته**

**أن يكرهني.** ليس باستطاعتك أن تكرهني يا زكريا، ليس باستطاعتك أن تفعل ذلك، فأنت كل ما تبقى لي، أما هو فقد مضى وامّحى من هذه الغرفة، ولم يبقَ منه إلا أصوات خطوات معدنية تدق على الجدار بلا نهاية مثل عكاز فقد اتجاهه. ولم يتبق لي ما أفعله إلا عدها. وأنت مستغرق في النوم على بعد شبر واحد مني. بعيد.. كالموت.

أنت لا تعرفه رغم أنك عملت معه فترة صغيرة في الخيمة التى كنت تسميها مدرسة المعسكر، وهو لم يعرفك أيضاً. وأنا فقط التى عرفتكما - كان رأيه بك دائماً موجزاً وواحداً قاله لي بعد أول مرة قابلناك فيها معاً مصادفة بالطريق:

- ما اسمه؟

- زكريا...

- من أين تعرفه؟

- زميلي في مدرسة المعسكر.

- صديقك؟

- كلا، إنه نتن.

وكان هذا كل شيء: «إنه نتن»، لم يغير هذا الاصطلاح إطلاقاً، وحتى حين عرف قال كلمة واحدة: «إنه نتن»، ومضى. توقف

العكاز فجأة، هنيهة واحدة، ثم دقت الساعة تسع دقات. مشى ثلاث ساعات إذن. ولكنه لم يعرف إطلاقاً أنك استوقفتني بعد ثلاثة أيام في الطريق وقلت لي: «سلّمي على حامد»، وأنا لم أوصل له سلامك، لأننى عرفت أنك استوقفتني لسبب آخر.. **لقد وقف فجأة، نظر إلى السماء أولاً ثم إلى ساعته، وعرفت أنه يفكر مثلهم كلهم: إن عليه قطع أطول مسافة تستطيعها ساقاه الفتيتان قبل أن يبزغ الضوء المبكّر وكنت مبسوطة أمامه، مستسلمة لشبابه بلا تردد ولخطواته وهي تدق في لحمي. ولكنه مثلهم كلهم، خاف من الانبساط الذي لا نهاية له، حيث لا تلة ولا علامة ولا طريق، وظلّ واقفاً ينظر إلى سواد الأرض المتصل بسواد السماء في نقطة تقع مباشرة أمام قدميه. ثم سار فجأة، شاباً كما كان دائماً مملوءاً بالغيظ والاختناق والحزن. ولم أستطع أن اقول له بأنه انحرف شبراً صغيراً إلى الجنوب سيصل به في الصباح إلى قلب الصحراء والشمس** - ولم أعرف قط لماذا مررت ذلك المساء من أمام المقهى الذي تجلس فيه، كأنما بالمصادفة. ولماذا أبطأت حتى يسّرتُ لك أن تراني وتلحق بي، ولم أعرف قط أن تلك اللحظة الصغيرة ستصل بي بعد أربعة أشهر إلى سريرك أمام ذلك النعش المعلق الذي ظل يدق.. يدق.. إلى سريره، هذا سريره هو. لقد نمنا معاً فى هذه

الغرفه حين كانت خالتنا تنام في الغرفة الأخرى قبل أن تموت. وكان سريري يمتد تحت النافذة، وسريره في الجانب الآخر مقابل الساعة. ثم نقلت سريري إلى الغرفة الخارجية بعد أن ماتت خالتنا وبقي هو هنا، مقابل الساعة، على هذا السرير، يستمع أغلب الظن إلى دقاتها المعدنية المبتورة تخطو فوق الجدار حول نفسها دون لحظة توقف واحدة...

وحين ماتت خالتي ماتت على سريره.. ويخيّل إليّ الآن أنه قصد إلى ذلك قصداً، فحين كانت طريحة مرضها الأخير قرر فجأة أن ينقلها من الغرفة الأخرى إلى سريره، ولم يقل قط لماذا، وقد ماتت هناك بعد أن دقت الساعة دقة واحدة، في الليل. أحست بذلك تماماً، فقد بَدت تلك الدقة الوحيدة، المبتورة والقاسية، بدت لنا جميعاً خطوة أخيرة. وقد نظرت إلى الساعة ثم إليّ فيما مضت تتحدث إليه:

- سلّم على أختي، الله كريم، ذات يوم ستذهبان إليها أو تأتي إليكما.

ونظرت إلى الساعة وقد بدأت تدق من جديد كأنها لم تدق أبداً، وقالت وهي لم تزل تنظر إليها:

- دير بالك على الصبية.

عندها خرجت من الغرفة. الصبيّة. الصبيّة. الصبيّة. كانت دائماً في ثيابي، في جثتي المتوهجة، في فراشي. غريبة كأنها الفراق.. الصبيّة، لم أعرف أنها خرجت ولكن خالتي عرفت فأشارت نحوها وراء الباب بأصبع واهن وقالت:

- زوّجها يا حامد زوجها، إنها صبيّة وأنا أعرف.

ولكن الملعونة لم تنتظر. جاءتني بجنين يضرب في أحشائها. وأبوه؟ ذلك النتن، الكلب، زكريا، لقد خدعاني معاً ثم طرداني وأنا غارق في عارها - زوجتك أختي مريم، زوجتك أختي مريم.. كله مؤجل.. مؤجل. جاءت وقالت:

- سأعترف لك بشيء خطير، فخفق قلبي وقلت لها:

- اجلسي إذن.

فجلست وطوت راحتيها فوق حضنها فسقط بصري فوقهما وعرفت فوراً. اجتاحني الرعب فأخذ جبيني ينضح عرقاً تساقط فوق عينيّ، وخيّل إلـيّ أن صراخاً ينبعث من تحت راحتيها المطويتين فوق حضنها. صراخ مجروح ينبعث من بين فخذيها حيث طوت راحتيها كأنها تخفي شيئاً. وفجأة بدأت تبكي، فقلت بصوت واهن:

- يا إلهي! عرفت!

فأمسكت كفيّ بكلتا يديها، وأخذت تمرغهما فوق شفتيها ودموعها وسمعتها تهذي:

- ولكننا سنتزوج يا حامد، سنتزوج.

وسألت بلا وعي:

- من هو؟

- زكريا!

- زكريا؟ زكريا؟ انتظري لحظة، زكريا؟ يا إلهي! كان الجدار عالياً وراء المعسكر. وقد اقتادونا جميعاً إلى هناك، وفيما كنا نتزاحم على الممر الضيق المؤدي إلى ذلك البناء المهدم كانوا يزجروننا تارة بالعبرية وتارة بالعربية المكسرة، ثم أوقفونا صفاً واحداً وانصرفوا يدرسوننا بإمعان واضعين فوهات رشاشاتهم تحت آباطهم، موسعين ما بين أقدامهم، وفجأة أخذت السماء تندف رذاذها ببطء وكآبة، فيما غاص المعسكر وراءنا بصمت أسود. وعند الظهيرة تقدّم الضابط ونادى سالم، إلا إن الصف بقي مستقيماً وصامتاً ومبللاً، وحين نادى مرة أخرى بصوته الرفيع العالي نقل رجل ما خطواته محتاراً فخشخش الحصى هنيهة ثم خيّم صمت جديد. وبدا الضابط وقد نفد صبره كتلة من الغضب المشلول. ووراءه مضغت مغاليق البنادق أشداقها بصوتها الفولاذي المكتوم

كأنها الموسيقى التي ترافق باتقان لا حدّ له مسرحية جيدة الأداء.
وانسحب الضابط ببطء موسعاً الطريق أمام الفوهات الدقيقة:

- إذا كنتم تصرّون على إخفاء هذا الفتى إلى ذلك الحدّ فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم، نحن نعرف أنه واقف بينكم.

وخشخش الحصى مرة أخرى فيما أطبقت جفنيّ فانزاح العالم من أمامي وأضحى لا يعني شيئاً. وفي اللحظة التالية تماماً اندفع زكريا خارج الصف المستقيم وقذف بنفسه راكعاً وكفاه مضمومتان إلى صدره وأخذ يصيح، فتراجعت الفوهات الفولاذية مترددة بطيئة، ثم تقدم الضابط فركله، وتولّى جنديان إيقافه على قدميه الواهنتين:

- أنا أدلكم على سالم.

وقبل أن يفعل تقدم سالم من تلقاء نفسه ووقف أمامنا مباشرة. وقد رأيناه يغسلنا بنظرة الامتنان التي لا تنسى فيما كانوا يقتادونه أمامهم. إلا إنه عاد فالتفت إلى زكريا وشيّعه بنظرات رجل ميت: باردة وقاسية وتعلن عن ولادة شبح. وغاب وراء الجدار هنيهة. ثم جاء صوت طلقة واحدة فيما أخذنا ننظر إلى زكريا وكأننا جميعاً متفقون على ذلك. زكريا.. زكريا.. كنتُ جثةً تتوهجُ داخل ثيابي. وكان الوهج يبقى فيها حتى حين كنت أخلعها وأعلقها

على الجدار. وكانت الساعة تشيّع نفسها كل صباح في نعشها الصغير أمام عيني وأنا أبدل ثيابي، فينبثق فجأة ثدياي الأهوجان كأنهما كانا مطويين في حقيبة حامد، وتنزلق كفّاي دون أن أعي - والساعة تدق - فوق فخذيّ. لم يكن ثمة في البيت كله مرآة كبيرة واحدة لأرى جسدي فيها مرة واحدة. كنت أرى وجهي فقط، وحين أحرك المرآة فتمر صورة صدري وبطني وفخذيّ تبدو لي قطعاً غير موصولة ببعضها لجسد فتاة مقطعة تشيّعها دقات مبحوحة، قاطعة وساخرة، تدق في الجدار بلا رحمة. كنت أول من لمسني فبدوت في تلك اللحظة قريباً حتى لكأنك عشت كل عمرك معي في ثياب واحدة. تحت تلك الدقات الرهيبة للعكاز الذي فقد اتجاهه، وبين أصابعك، يديك، شفتيك، وتحت عينيك، خلعت خمساً وثلاثين سنة من حياتي سنة سنة وقطعة قطعة. هل سأراك دائماً كاللص، أسرق النظر إليك وراء المنعطفات؟ «لنتزوج إذن..» أخوك حامد سيطلب مهراً على عشرين جملاً. «اسأله» هذا الصغير لا يطيق سماع صوتي، أنا أعرفه يفضّل أن يقتلك على أن يراك مع أي رجل، فكيف إذا كان زكريا هو ذلك الرجل؟ «لا تريد أن تتزوّجني إذن» أريد ولكن لماذا لا تريدين أن أراك؟ **لقد أعطيتُه من وحشيتي كل ما أملك، وهو يضرب دون أن يعي بعيداً عن طريقه. ولكن شيئاً واحداً لا أستطيع**

إعطاءه: الوقت. كان يتسرب من بين خطواته، ليس ذلك فقط كان ضده. لم يكن في سباق معه، ولكن في سباق مع خسارته. ومن تلك الوحشية التي لم يعد يعرف من أين تعمل داخل جسده، استمدّ شعوراً بضرورة التوقف، فوقف، كان الأفق أمامه يتوهج. ثمة أنوار وطريق وأصوات بعيدة - لو أنه يعرف لحسب أنه استبق الوقت ولكنه لا يعرف. وقف وأخذ يفكر، كانت حركته قد أعطته حرارة في وجه الريح الباردة القادمة من السماء في كل الاتجاهات. وفجأة بصق. ليس يهم، فأنا لا اتعامل مع الإحساسات التي تعصف في أعماقه. أتعامل مع الاتجاهات فقط. وهو هنا في اتجاه خاطئ. ضده. ورغم ذلك فيبدو أنه ما زال مغيظاً من أمر لا علاقة لي به، ولا علاقة له بوقفته تلك نصف ساعة بعيداً عن الطريق الصحيح. وقد حدث ما كنت أتوقعه تماماً، فحين حاول أن يمر بعيداً بعض الشيء عن الأضواء أخطأ الاتجاه مرة أخرى، وانصب بشكل يكاد يكون مستقيماً نحو الجنوب متخلياً نهائياً عن التفكير، معتمداً على حواسه جميعاً دفعة واحدة مغلّفة بشيء من الرعب، ولكنه رعب مستثار أيضاً. مزيج من المشاعر التي تملأ قبضتي مغامر شجاع وهما تدقان بوابة مجهولة. كنت أرتجف خائفة ومستثارة في وقت واحد حين رأيته أمام الباب، كان حامد قد غادر منذ خمس دقائق

فقط وكان زكريا واقفاً أمام الباب واثقاً من نفسه وسأل:

- هل هو هنا؟

ودون أن ينتظر وضع قدمه في الباب. ودخلت واضعاً يدك على كتفي فأحسست بها ثقيلة تكبلني:

- أريد أن أحدثه بشأن زواجنا.

وفي دوامة من النشوة لست أدري كيف قلت:

- إنه ليس هنا.

- هل سيتأخر؟ أعني هل أستطيع انتظاره؟

- لا أعرف، لا أعتقد. لقد ذهب ليأتي بالإعاشة، أنت تعرف، أنه أول الشهر.

وتحرك إلى الداخل ثم استدار فجأة:

- خائفة مني؟

- كلا، لماذا؟

تقدمت فوضعت شفتيك حارتين قاسيتين على عنقي وسقطنا معاً فوق الكرسي الطويل الذي كان سريري. وسمعت صوتك في ثيابي:

- إذن سيتأخر.

وأحسست كفّك فوق صدري تعتصر:

- إذن سيتأخر، كنت ماراً من هناك بالمصادفة.

ثم التصق جسدك كله بي والتهبت:

- كنت ماراً بالصدفة قرب المركز ورأيت ازدحاماً لا يصدق. صحيح، أنه أول الشهر.

ولست أدري كيف أحسست بيديك الخشنتين على ظهري العاري: «إذن سيتأخر» سقطت الكلمة في أذني وطافت هناك بلا معنى، فلم يعد يهمني، بعد، أن يتأخر أو لا يتأخر، ثم لبست ملابسك:

- الأفضل أن أذهب.

وكان انهيار صامت يجتاح بدني فيحطمه من الداخل. وحين صفق الباب فقط سمعت الساعة تدق ثماني دقات كأنها تقرع الباب مرة أخرى، لو كانت أمي هنا فقط، يا زكريا، لو كانت أمي هنا فقط. ولكن ليس غيرك، وحامد سيذبحني لو عرف، وأعتقد أنني حامل، وابتسمت ووضعت يدك على كتفي وأنت تنظر إلى بطني وكأنك ترى الجنين يلتفّ في أحشائي ضائعاً، يطمر نفسه تحت شيء ما، وينظر إلى العالم دون إذن بعينيه المجهولتين الصغيرتين. ثم قلت ونحن نمعن في أزقة صغيره:

- أنت أرض خصبة أيتها الشيطانة أرض خصبة، أقول لك.

**أرض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول تتكسر كل أنصال الفولاذ في العالم إذا مرّت فوق صدرك الأصفر العاري، صدرك الأجرد الممتد إلى أبدي وإلى آبادهم، والسابح بجلال في بحر من العتمة، كل أنصال الفولاذ في العالم ليس بمقدورها أن تحصد من فوقك عرقاً واحداً، ولكنها تتكسر، واحداً وراء الآخر، أمام حصادك الصلب النامي أكثر فأكثر كلما خطا الرجل إلى أعماقك خطوة وراء الأخرى، حتى ليتحول هو ذاته إلى عرق مجهول مشرش يستقي منك انتصابه وخطواته.** وليس بالوسع أن يحصد. لا تقل لي ذلك حتى لو فكرت به فأنا خائفة منه إلى درجة لا أجرؤ فيها على القضاء عليه، عاري. ولكنه يا زكريا، عاري الوحيد في خمس وثلاثين سنة طاهرة ومخزونة.

وها هي تدق عشر دقات. تدق تدق. كأن العكاز ينتزع نفسه بائساً وهو يدق خطوته الأبدية المفردة في نعش صغير مغلق بإحكام - أربع ساعات يسيرها دون لحظة توقف، وأنت تتركني معه أتعقب خطواته على الجدار ملقى إلى جانبي تتنفس نومك، ترى كم بقي له، هل تستطيع أن تعرف. زكريا.. زكريا..

- لم تنامي بعد؟

- كلا، ولكن قل لي يا زكريا، كم يحتاج المرء إلى قطع المسافة

مشياً من غزة إلى الأردن؟

- عشر مرات قلت لك.

- لا، لم تقل لي.

-ا ثنتا عشرة ساعة...

وانقلب على جنبه لحظة، ثم رفع نفسه على مرفقه ومضت الساعة تدق، وأكمل:

- ... إذا كان يعرف الطريق جيداً.

واقترب، وأخذت عيناه تبحثان في العتمة عن وجهي:

- .. وإذا لم يصادف دورية في الساعة الأولى.

جلس الآن تماماً ومرر أصابعه في شعره، ونظر إلى ساعته، ثم عاد ونظر إليّ:

- كم الساعة الآن؟

- دقت العاشرة.

- وأنت تفكرين به؟

- نعم.

- لقد حاولتُ جهدي أن أمنعه على طريقتي الخاصة، أنت لست غاضبة مني؟

- كـلا.

- إذن حاولي أن تنامي.

- إنني ما زلت أحاول ذلك منذ ساعتين على الأقل.

وانزلق، مرة أخرى، في السرير ودفن وجهه في الوسادة:

- على أي حال لن يفيده أن تمضي الليل تفكرين به، أفضل لك أن تقتلي الوقت نائمة.

- لا أستطيع.

وانقلب إلى الجانب الآخر وصمت، فبدت الغرفة مهجورة من جديد، يجول فيها ذلك الصوت الرتيب لدقات لا تتوقف، تحوم حول أذني، وتصدم رأسي من جوانبه كلها، ثم استدار ومد يده إلى الطاولة، فخشخشت علبة الثقاب وأشعل لفافته فأضاء وجهه المربع الخشن، والتمعت عيناه الصغيرتان نصف المغمضتين في حفرتين مظلمتين، ورفع جسده متكئاً على الوسادة، وامتص لفافته فتوهجت نقطة ضوء تسبح في العتمة، ثم خطت فوقها دقات العكاز فبهتت من جديد.

- سنغير قليلاً في أثاث البيت، على قدر ما يسمح لنا الجيب، أعتقد أن السريرين لا بأس بهما، ولكن سنحاول استبدال مقاعد الجلوس في الغرفة الأخرى.

- يجب أن نفكر بالصبي.

- أنت مجنونة، صدقيني! تفتكين بشبابك من أجله، وغداً ستلعنينه وتلعنين أباه والساعة التي لم تستمعي فيها إلى النصيحة، ستتحولين إلى امرأة مترهلة ببطنٍ منقوش كأنه مصاب بالجدري، أنا أعرف، وقد رأيت ذلك بعيني، وطوال عام كامل لن تكوني امرأة، مجرد زجاجة حليب.

واقترب، واضعاً لفافته بين شفتيه، ومرر كفه فوق صدري وبطني، وتوقف هناك لحظة:

- لك جسد هائل لا تدركين جماله، وغداً حين تبيضين بيضتك الكبيرة ستنقلبين إلى جبل صغير من اللحم وتفقدين كل شيء عدا قطعة الصراخ تلك التي ستقلب حياتك إلى جحيم.

وفجأة جاءت. وقد كنت أحسب أنني لن أفكر بها، ولكنها جاءت مع صوته حاملة أطفالها. ووقفت هناك، على قدمي السرير، فيما كانت كفه الثقيلة الدافئة تضغط برفق فوق أحشائي. حتى إنني لم أسأله عن اسمها!

- لم تقل لي ما اسمها.

وسحب يده فجأة وامتصّ لفافته من جديد. وفي الصمت المفتوح على وسعه، أخذ العكاز يقرع خطوته المفردة بإلحاح متسارع:

- كنت أعرف أنك ستسألين هذا السؤال ذات يوم. لا مانع عندي طبعاً، ولكن الآن؟ ما الذي جعلها تمر في رأسك؟

- يدك، يدك وهي تمر فوق بدني.. هكذا تفعل معها أيضاً؟

- لست أدري. ولكن استمعي إلى هذه النصيحة من أجل راحتك فقط: حاولي أن لا تفكري بها كثيراً.

- ماذا قالت لك؟

- لم تقل شيئاً، كانت تعيّط طوال الوقت، فلم تجد وقتاً للكلام.

وجر نفسه أكثر نحوي وأحرقني لهاثه، فاشتعلتُ وعرفت أن ذلك سيحدث ولم أستطع مقاومته، وانزلق ثوبي بين أصابعه فتدفق جسدي، وأخذت العتمة تلهث حولي بفحيح مستثار، وفاحت روائح الرجال دفعة واحدة فيما أخذت أهتز بلا هوادة صعوداً ونزولاً، وأنا أنسحق بين الأكتاف، أُقذف وأُدفع وأُسحب وأُكوم، وأُهمل، ثم أُجر وأُعتصر وأبلل بالماء في مزيج راعب من البرد والقيظ في آن واحد، حتى إذا ما طُوفت فوق دوامة من الغيبوبة، أخذ حامد يهزني بكلتا راحتيه معتصراً كتفي بين كفيه الصغيرتين المتشنجتين:

- مريم هل أنت مريضة؟

- كلا ولكن أين أمك؟

- تُركت على الشاطئ وستلحق بنا، خالتك هنا معنا.

كان صغيراً وشجاعاً بصورة لا تصدق، وقد ظل ينظر بعينيه الحادتين إلى كل الرجال نظرة الند، وهو ملتصق فيّ كأنه درع صغير من الفولاذ يرصد سن الرمح. ووراء الشاطئ الأسود كانت يافا تحترق تحت شهب مذنبة من الضجيج الملتهب المتساقط في كل مكان. ونحن نطوّف فوق موج داكن من الصراخ والدعاء.

- ولماذا تركتَ أمك على الشاطئ؟

- لم أتركها، ولكن الزورق امتلأ وستأتي في زورق آخر. إن الرجال يعتنون بها هناك، وكان لا بد لي من أن آتي معك، وخالتي أيضاً.

كان عمره عشر سنوات فقط وكنت في العشرين، وبدا أنه اكتشف كل شيء في لحظة مجنونة واحدة. وقد صرف الليل كله يحدق إلي بعيني نسر صغير، ونحن نطوف في فراغ أسود بلا نهاية والمجاذيف تدق سطح الموج. تدق. تدق. ويافا تغطس كالشعلة في مياه الأفق البعيد. وتنطفئ في عيوننا نقطة نقطة. **لقد حرصتُ عليك حرصي على حياتي ذاتها أيتها البقرة، أمضيت كل أيامي وأنا غارق في خدمتك الصغيره ليلاً نهاراً بلا كلل. وكنت أريدك امرأة شريفة تتزوج ذات يوم رجلاً شريفاً. ولكنك فتحت فخذيك لأول رجل. لأول نتن. وجئت تحملينه في أحشائك، دون أن تكترثي**

**لحظة واحدة بي، دون أن تكترثي حتى به. كنت أيتها البقرة، كنت، كنت. ولكنك ستسقطين في سرواله معها، سيتقاسمكن جميعاً وستموتين هناك، وسأقول لأمك إنك متّ، وأنني دفنتك في سروال رجل نتن، مع امرأة أخرى لديها منه خمسة أطفال، وقد تلد طفلاً سادساً في المساء.** فكيف سنعيش معاً؟ ستقيم معي هنا وتتركها؟ حتى أنني لم أسألك هذا السؤال! قد يمضي الليل كله دون أن تأتي، فتكون إذن في فراشها هي. وفي طريق عودتك من دارها إلى مدرستك تقرع بابي، أو لا تقرعه، كلما ذهبت إليها ستمر من أمام الباب. يا إلهي. لم أفكر قط أن بيتي يقع في منتصف الطريق بين بيتها ومدرستك. وقد أراك تمر أمام الباب وتمضي إليها دون أن تلتفت. هل تشدها دائماً من شعرها وأنتما تتسلقان هذه اللذة الأليمة؟ «قلت لك كفّي عن التفكير بها وفكري بي أنا معك». ورفعني بين ذراعيه الثقيلتين، فصارت الساعة أمامي، وكان عقرباها غائبين في العتمة إلا إنهما ظلاّ يدقان. وغصنا معاً بما يشبه الإغماء. من أين يستطيع حامد أن يفهم؟ لقد كان دائماً رجلاً رائعاً، ولكنه لم يكن أبداً إلا أخي. ومرور الزمن لم يكن يعني لديه شيئاً فيما كان بالنسبة لي موتاً يعلن عن نفسه كل يوم مرتين على الأقل. بالنسبة له كنت أتحول كل يوم إلى مجرد أم. وكان يتحول كل يوم بالنسبة

لي إلى رجل محرم. ولم يدرك قط طوال عمره أن لحظة ارتطام واحدة مع رجل حقيقي ستودي بنا معاً، وأيضاً بعالمنا الجميل الصغير التافه الذي أجبرنا أنفسنا على اختياره. عالم تافه غير مستعد لقبول عانس أخرى، فما الذي كنت تتوقعه إذن؟ انتزع نفسه واستلقى عارياً وأخذ يحدق إلى السقف وهو يلهث:

- لم تكوني هنا، أنا أعرف! كنت مثل قطعة حطب. ولكن ذلك لن يستمر طويلاً، أنا الذي أعرف كيف أطوّعك.

وصمت قليلا ولهث بصفير مسموع:

- كانت فتحية مثلك في البدء.

- اسمها إذن فتحية؟

- أف! لم تفهمي من كل ما قلته إلا فتحية.. فتحية.. ماذا تريدين أن أفعل؟ أطلّقها؟ أنت لا تريدين ذلك، أنت أكثر شباباً منها وأكثر جمالاً، فلماذا تخافين منها؟ انتظري قليلاً لتسمعي رأيها.

قمتُ فأخذ السرير يئزّ، ومضيتُ إلى الغرفة الأخرى. كانت زميلة صغيرة في ثانوية الإنكليز بيافا لها عينان تغمزان دائماً كأنما حين تتحدث، تتحدث دائماً عن الحب. وكان فمها الصغير يُدعك بانتظام، فتبدو شفتاها ثقيلتين مضرجتين. وأثناء الدروس كانت تعلكهما بأسنانها لتحافظ على لونهما المتوقد، كانت صغيرة، وكان

جسدها المشدود داخل الثوب الكحلي يبدو كجسد قطة مهتاجة. وكانت دائماً تكتب رسائل وتتلقى رسائل، وتتحدث عن رجل تسميه دائماً «هو» وتغمز بعينيها. ترى أين انتهت الأيام بك يا فتحية؟ كان أبوها يقول دائماً أنه لن يغادر يافا حتى لو انقلبت إلى كهوف حجرية. وكان إذا تحدث يظل يقول أهلاً وسهلاً كأنه صاحبُ مضافة بدوية. وحين زرناها مرة أثناء الحوادث دخل إلى الغرفة وتناول كتاباً والتفت فجأة إليّ:

- ماذا قرر أبوك أن يفعل يا مريم؟

- لست أدري، ولكنه ينوي أن يبقى، هكذا يقول.

- أهلاً وسهلاً، وأنا أنوي أن أبقى.

وخطا إلى الخارج فيما أخذت فتحية تغمز وتبتسم، وهي تنظر إلى قفاه المتهدّل إلاّ إنه عاد والتفت إلينا:

- ولماذا أغادر؟ إذا جاءت كارثة فأهلاً وسهلاً، لن يستطيع القدر أن يمسخ أكثر من القرد.

وحين غيبته نهاية الممر، قالت فتحية فجأة:

- سأزوجك أخي فتحي ذات يوم... إنه يبحث عن عروس، ما رأيك؟

- قلت لك أنني أنوي إكمال دراستي.

وغمزت وابتسمت، وعلكت شفتيها بأسنانها:

- قولي هذا الكلام لغيري.

وكانت أمي تتحدث باللهجة ذاتها: إذا خطبك فتحي فلن أقول: «طيب» سأقول كما يقول أبوه: «أهلاً وسهلاً». ووقف أبي أمام الباب، كان غاضباً، وكان يرتجف شأنه كلما تحيّر في غضبه، وصاح بصوته العريض المبحوح:

- لا تتحدثوا عن الزواج قبل انتهاء القضية.

وكان إذ يلفظ كلمة القضية يبدو الخطر محدقاً ودامياً. وكانت له طريقته الخاصة في ذلك، فهو يشد على الياء بعنف وينفض نهاية الكلمة نفضاً. وقد أخذ حامد هذه العادة منه، أغلب الظن.

**لقد حملوه من طرف الطريق مضرجاً، وكنت أقف على الباب الخارجي، وسألني أحد الرجال: أنت حامد؟ وفجأة أخذت أبكي. ومن الشباك أطلّت أمـي، ثم مضت بنواح ممزق، وانفتحت الشبابيك فجأة وأخذت الأصوات تندب. وتسلّق الرجال السلّم صامتين وهو ملفوف بمعطفين وذراعه العارية تتهدّل بينهم، وتتأرجح جيئة وذهاباً. ولم تكن مريم هناك، ولو كانت وشهدته لأصيبت بالجنون. هكذا ظلت تقول أمي حتى اللحظه الأخيرة. وقد أرسلتني انتظرها فى رأس الطريق لأقول لها أن تمضي الليل فى**

**بيت خالتي، ثم أرسلت إلى هناك بدوري، وظلّت أمي وحدها محاطة بجيرانها الباكيات. وفى اليوم التالي تماماً اشتعلت يافا كلها، وأضحت المنشية ركاماً مسوداً لا تكف فيه أصوات الرصاص، فمضت خالتي وجاءت بأمي إلى بيتها.**

أضحت الأضواء الآن ورائي ملتصقة فى نهاية الأفق باهتة وصامتة. وتصاعد الهدير متصلاً وراء الهضبة حيث مضت الشاحنات تشق طريقها الليلي، إلا إنني كنت في مأمن. وكان التراب قد انطوى تحت سهل صخري، فأضحت خطواتى أقل ثقلاً وأكثر اطمئناناً. كانت الريح باردة ومنعشة، وحاولت أن أنظر إلى الساعة، إلا أن الظلمة كانت حالكة تماماً. وفجأة بدت لي الساعة غير ذات نفع، حيث لا أهمية هنا إلا للعتمة والضوء. وفي هذا العالم الممتد إلى الأبد من السواد القاتم، تبدو الساعة مجرّد قيد حديدى يفرز رعباً وترقباً مشوباً. وفي اللحظة التالية فككتها بهدوء واطرحتها، وسمعتها تخبط بصوت مخنوق على الأرض، **وأخذت تتكّ فى أعماقي بصوت حزين مهجور، مثل قلب معدني صغير فى جسد عملاق، حتى إذا ما هجرتها خطواته تماماً مضت تستغيث مسحوقة فى الدوران الجهنمي للسماء السوداء المرضّعة كأنها تترقب انقضاضاً مجنوناً، وشيئاً فشيئاً ضاعت، هي التى كانت مهمتها الوحيدة فى الكون أن**

**ترشد، أمام الزمن الحقيقي الصامد بلا حركة وبلا صوت.**

لقد شعرت، من ثم براحة أكبر وأنا أنفرد بالليل دون وسيط. انهدم الجدار فجأة، وأصبحنا ندّين فى مواجهة مباشرة لعراك حقيقي بسلاح متكافىء وبشرف. وأمامي انبسطت المسافة السوداء عالماً من الخطوات غير مربوطة بعقربين صغيرين. **لقد انطوى زمنها الصغير المتوتر الأحمق، وبدت فوق الحصى البارد الشيء الوحيد فى هذا الكون الخارج عن الزمن الحقيقي، كزنبور يطنّ بلا هوادة، دائراً بجنون حول نفسه، فوق نهر لا تبدو ضفتاه ولا يُسبر غوره.** وبعد خطوات انتابني شعور بأنني بترت جزءاً من معصمي، ورغبت في أن أنصرف بالتفكير إلى هذا الأمر تاركاً لقدمي المضي بطلاقة فوق الأرض الصلبة، وما لبثت أن تيقنت بأن ما حدث لم يكن بتراً، وربما كان سبب هذا الاستنتاج إمعاني فى الابتعاد عنها، وهي ملقاة هناك فى مكان أضحى مجهولاً ومستحيلاً. ما حدث كان فقط أنني حككت من فوق معصمي قشرةً ناشفة لدمّل قديم، حمل إلي اللذة الأليمة التي تغمر جسد الإنسان حين يقشر من فوق الندب الغطاء الدموي الجاف بتمهل وتصلب، فتسقط معه ذكرى الجرح ذاته، كأنها كانت ملتصقة هناك داخل ذلك الغطاء المحكم، ولا يتبقى ثمة إلا رقعة برصاء لا تمت مباشرة إلى أيما شيء. **وما لبثت أن**

**جُنّت فمضت غارقة فى غربتها تتكّ لنفسها رافعة ذلك الجدار الذي لا يُخترق، والذي يرفعه المجانين عادة بينهم وبين العالم.**

وجاء بهدوء، وأشعل الضوء، وجلس فى الكرسي المقابل وأخذ ينظر إليّ عازماً على الخوض فى حديث طويل. إلا إنه ظلّ متردداً يمتص لفافته، فيما أمعنَتْ دقات الساعة فى الابتعاد عني كأن العكاز المفرد عثر على ممر ما فمضى يجربه كدأبه كلما خرجت من الغرفة.

– هل ستنتظرين وصوله جالسة هنا؟

– نعم كما يبدو.

– ولكنه بالنسبة لك، لن يصل أبداً.

– كيف؟

– لن تعلمي أبداً عن وصوله، كيف ستعرفين أنه وصل؟

– سيكتب لي، هكذا قال.

– ولو..

– ولو ماذا؟

– ولو كتب لك، فالرسالة ستصل بعد خمسة أيام.. هل فهمتِ؟ سأشرح لك أكثر. أنت لن تطمئني تماماً إلى وصوله إلا إذا كتب لك. أليس كذلك؟ حسناً. ستصلك رسالته لو كتب غداً صباحاً بعد خمسة

أيام، وهكذا فإنه بالنسبة لك، سيظل يسير خمسة ايام، وأنا اعتقد أنه لن يكتب لك. فهو حين غادر غزة أراد أن يهرب منك، فلماذا يكتب لك إذن؟ وإذا لم يكتب لك إلى الأبد، فإنه، بالنسبة لك، لن يصل إلى الأبد.

- هراء.

- لو قرأت غداً صباحاً في الجريدة خبراً يقول إن أحد المتسللين قتل على الحدود؟

-كفى!

- إننا نتحدث، أليس كذلك؟ لماذا تغضبين؟ أعني إذا حدث له حادث، ونقلت الصحف الخبر غداً فإن ذلك سيكون..

- قلت لك كفى.

وصمت قليلاً، فيما اندفعت من بين دفتي الباب نصف المغلقتين الدقات المعدنية الحازمة والجوفاء للساعة فأخذت أعدُّها واحدة وراء الأخرى، وأغلب الظن أنه عدّها هو أيضاً، فقد تنهد وفرش كفيه أمامه:

- الساعة الحادية عشرة.. أمامه أكثر من ضعفي المسافة التى قطعها ونحن نجلس هنا مثل التيوس، غير قادرين على منحه أية مساعدة، أو أي ضرر.. ولكن بحق الإله، ما الذي يريد أن يفعله في

الأردن؟ يذهب عند أمه! ها!

كانت تلك هي المرة الأولى التى عرفنا فيها أول أخبار أمي: فى يوم شتائي قارص دق الباب بعد العشاء، وأطلّت عجوز متدثرة ببطانية كالحة تزرب من حواشيها خيوط المطر، وسألتني أين خالتك يا مريم؟ فوسعت لها الطريق لتدخل، وهناك بسطت الخبر من بين فكيها الأدردين:

- أختك أم حامد جاء اسمها فى الراديو، سألت عنك وعن حامد وعن مريم وطلبت أن تقولوا لها أين أنتم.

وانخرطت خالتي في البكاء فمضت دموعها تنحدر عبر شقوق وجهها الترابي داخل أخاديد اعتادت أن تنزلق فيها، وكي تفعل شيئاً أخذت تعتصر حامد بكلتا ذراعيها وهي متربعة في صدر الغرفة، وتضمه إليها وتدعوه بكلمات مقطعة أن يبكي معها، ولكننا قررنا أن نكتب رسالة للإذاعة بحثاً عن المزيد من المعلومات. وكان حامد يصر أن تكون الرسالة موجهة إلى أم حامد، إلا إننا اتفقنا بعد ذلك على صيغة ما، وتلقينا الجواب بعد أربعة أيام. قام ومرّ من جانبي كالشبح ومضى إلى غرفته، ومن هناك دعاني لأنام ولكنني لم أجب. ودعاني مرة أخرى ثم صمت تماماً. وسمعت تنفسه الثقيل المنتظم بعد لحظة فقمت وأطفأت الضوء ودخلت في سريري وأغمضت

عينيّ، إلا إنه مضى يدق بثبات أرضاً بعيدة، وبدا تلك اللحظة واضحاً وصلباً وينظر إليّ مباشرة بعينيه الغاضبتين اليائستين وحيداً أبداً، وربما ضائعاً أيضاً، ومهجوراً، فأخذت من جديد أعدّ خطواته فيما غاص زكريا في نومه تماماً واضعاً وجهه المربع الخشن في الوسادة. ما الذي يريد أن يفعله بحق الإله في الأردن؟ هل يريد أن يقطع الصحراء كلها ليلقي بنفسه في حضن أمه ويبكي؟ يا له من طفل كبير مسكين؟ لقد عاش كل عمره أمام ظلّ فَرَشَهُ لنفسه طوال خمسة عشر عاماً وأكثر. ولكنه لم يلجأ إليه، بانتظار أن يصادف كارثة ما. لقد جعل من أمه البعيدة ملجأً يؤمه ذات يوم صعب، وانصرف إلى تكبيره وإعداده إلى درجة نسي فيها أن يبني في نفسه رجلاً لا يحتاج في اليوم الصعب إلى ملجأ.. ما الذي كنت تعتقده يا حامد المسكين؟ أن يظل المحراث محرماً على هذه الأرض الخصبة؟ أن أصرف حياتي أمام سروالك المعلق، استوحي فيه رجلاً من يافا اسمه فتحي كان يحضّر بصمت وكبرياء مهراً يليق بابنة أبي حامد؟ لقد ضاعت يافا أيها التعيس، ضاعت، ضاعت، وضاع فتحي، وضاع كل شيء. وأنت نفسك علّقت هذا النعش أمامي ليدق هذه الحقيقة الفاجعة على سمعي ليل نهار. وأنت الذي عرفتني بزكريا. وأنت الذي جعلت أمي تنقلب إلى مجرد وهم. **وما الذي**

**تعتقد أنها ستقوله لك، هذه الأم التي لم تعرفها حقاً: «أيتها المسكينة الصغيرة يا مريم! أي بؤس أمضيت حياتك فيه جعلك تقبلين بهذه النهاية! أنت يا وردة المنشية بأكملها، الطموحة المتعلمة، ذات الأصل والفصل، أي حياة تعيسة جعلتك تقبلين زكريا بأعوامه كلها وزوجته وأولاده زوجاً؟ يا حبيبتي الصغيرة يا حبيبتي..» وإلا ماذا تصورت حين قررت في لحظة محروقة أن تترك كل شيء وتمضي إلى أمك؟ هل تصورت أنها ستقوم معك، تقطع الصحراء معك عائدة إلى غزة، تقتحم البيت، فتلقي زكريا بالطريق، وتعيد لمريم عفافها وطموحها وشبابها؟** لقد اندقت ساقاه فجأة في سفح تلة صغيرة وأخذ يرتجف. هذه المرة بدت وقفته حازمة ونهائية، وخُيّل إلي أن قدميه قد غرستا في صدري كجذعي شجرة لا تقتلع. لقد كنت على يقين لا يتزعزع بأنه لن يعود. ولكنني اعتقدت لوهلة أنه لن يستمر أيضاً، وأنه سيظل مغروساً هنا ينبض وحده في العراء إلى أن يموت واقفاً، مثل ساعته الصغيرة التي غادرها وحدها، تدق لنفسها حتى تقف دون أن يكترث لها أحد. وفي اللحظة التالية، وكأنما بسببه وتحت نظراته الجامدة وغربته، انشقت السماء واندلعت منها حزمة ضوء أرجوانية، صبّت مثل شلال وهمي وراء الأفق. وقد رأيته، ثمة، لأول مرة. كان

وجهه خشناً ربما بسبب لحيته القصيرة التى أخذت لوناً مغبراً، وكان حاجباه يتصلان فوق عينيه السوداوين الضيقتين. وفوق جبينه المستقيم كان شعره الأسود القصير يلتف حول نفسه ممتزجاً بالغبار فيبدو فضياً لامعاً. كان معطفه بلون الخيش وضراوته، وكانت كفّاه كبيرتين صلبتين، وبدا جسده الفتي تحت ثيابه الضيقة متيناً ومتحفزاً كجسد قط بريّ. كان شديد السمرة، تلك السمرة التي لا يكتسبها إلا الجسد الذي احترق بشمس حقيقية جيلاً وراء جيل، فتبدو وكأنها غُسلت يوماً بعد يوم بالطين والدم معاً، حارةً ولها معنى. لقد ظل العمود الأرجواني من الضوء معلقاً بين السماء والأرض هنيهات، ثم أخذ ينقلب إلى الأخضر فتتحرك معه الكثبان البعيدة مغيّرة لونها من البُني إلى الأصفر الكامد، فيما ترتد السماء السوداء مرة أخرى صاعدة من الأفق بسرعة هائلة، وهي تزرع وراءها النجوم في أمكنتها الثابتة. لقد وقف هناك كأنه أمام بوابة مشرعة، فتحت كفيها على حين فجأة. **من جحيم إلى جحيم آخر، فما الذي فعلته أيها الأحمق غير أنك قذفت نفسك بالهواء؟ ما الذي تريد لأمك أن تقوله؟ كان أحرى بك أن تذبحها فوق ركبتك. أن تقذف به إلى جهنم وأن تمسح كفيك الداميتين بوجهك وجدران بيتك وتبقى هناك. ولكنك كنت أجبن من أن تفعل ذلك. كلا لم**

**يكن جبناً. كان عبثاً عبثاً. وهذا عبث أيضاً. تريد أن تضع أمك بينك وبين مريم؟ تريد أن تجعلها جداراً من النسيان؟ ارتداداً إلى كارثة أخرى؟ لقد كانت أمك بالنسبة لك دائماً فارساً غائباً على استعداد ليشرع سيفه في وجه أي عقبة تقف أمامك. وعشت كل عمرك متكئاً عليها. فما الذى تريده الآن من هذا الفارس الوهمي الذي أعطيته من فشلك وعجزك حصانه الخشبي التافه؟ إجلس هنا تحت هذه السماء المرتدّة إلى أعماقها وفكّر بروية: غزة راحت الآن وامحت وراءك فى الليل. خيوط الصوف كرت كلها، ولم تعد أنت مجرد كرة لفوا عليها خيطان الصوف ستة عشر عاماً، ولكن من أنت؟**

سقط فجأة على ركبتيه، كأن قبضة غير منظورة سحقته دون وعي. وغاصت حزمة الضوء الأخضر مرتدة إلى نقطة واحدة فى السماء، ساحبة معها لحظة النور التى غسلت كالومض السواد القاتم بأجمعه. وفى النفضة الأخيرة للضوء، بدا وهو راكع هناك، وكفّاه فوق فخذيه المطويتين مخلوقاً قذفته حزمة الضوء فوقي وهي ترتد كما جاءت، بوقار وبلا ضجيج. **هل أنت واثق من أنها لم تتزوج هي الأخرى؟** هز رأسه بعنف، كأنه يريد أن يتخلص من صورة التصقت به من الداخل، **ما الذي أدراك أنها لم تتزوج فور أن ضاعت عنكما؟**

لقد كتبت دائماً تقول لك أنها تعيش مع شقيقها وأولاده وتعنى بهم، ولم يكن أمامك ما تفعله إلا أن تصدق. ولكن ماذا ستفعل لو دخلت الآن إلى بيتها فقالت لك: «هذا زوجي. كان لا بد من أن أتزوج حين حسبت أنني فقدت كل شيء.» ما الذي ستفعله؟ ستعود مرة أخرى لغزة؟ تصور ذلك جيداً. تصورها تقول لك: كنت أصغر من الأربعين، وكنت وحيدة تماماً، وكان عليّ أن أختار بين أن أمضي حياتي خادمة عند خالك وأولاده، وبين زوج يشتري لي - حين أموت - كفني وبلاطتي. يا حامد يا ولدي الصغير! يا ولدي المسكين! أكان من الضروري أن ترتطم بالعالم على هذه الصورة الفاجعة؟ لماذا لم تصطحب معك دليلاً واحداً، سلاحاً واحداً يرافقك هذه الخطوات الصعبة؟ لقد بدا بائساً ومحطماً ومثقلاً، وكان بعيداً أيضاً عن الطريق. والليل يتسرّب من حوله دون أن يدري. وددت لو أستطيع أن أقول له شيئاً، إلا إن الصمت هو قدري، وكان متعباً بلا شك ملقى في هذه الهوة من العتمة معذباً ومطعوناً دون كلمة واحدة، دون كلمة واحدة. وهي تدق. تدق. تدق. وليس ثمة إلا الانتظار المرّ الذي أعرف أنه لن ينتهي، إلا إذا قرأت اسمه في جريدة الصباح. وعندها فقط ينتهي كل شيء على الإطلاق. ولن يبقى ثمة إلا أنا وزكريا وهي تحمل أطفالها وتقف على قدمي

السرير تنظر إلي عارية أرتوي بين ذراعيه من بئرها ومائها، وألعق صدره ككلبة. قل لي يا حامد: ألم تذهب أبداً مع امرأة؟ ونظر إليّ فجأة وكأنني صفعته. ربما عرف تلك اللحظة أن تأمّلي لجسده العاري الملفوف فى أسفله بمنشفة قد أطلق السؤال من بين أسنانى بغيظ، وسأل وهو يشد المنشفة حول وسطه:

- ماذا تعنين؟

- أعني ألم تفكر بالزواج؟

وأخذ يهزّ رأسه:

- سأتزوج حين أجمع العائلة من جديد في بيت أفضل من هذا الحجر القميء. ودرت حوله وسألته:

- لم تجب على السؤال الأول، ألا تعرف أية امرأة؟ ونظر إليّ من جديد بدهشة، وقاسني بعينيه ربما لأول مرة فى حياته، ثم بدأ يمشّط شعره. كان شعره خشناً ملتفاً حول نفسه صعباً قاتم السواد، وكان إذ يمشطه لا يحتاج إلى مرآة، فقد كان يقذفه إلى الوراء، وهو يعرف أنه سيعود فى اللحظة التالية إلى الالتفاف حول نفسه من جديد، وكان هذا يغيظه في البدء، إلا إنه فقد اهتمامه به فيما بعد. وفي المساء جاء متأخراً، وأخذ يحدث جلبة في كل مكان كي يوقظني، وحين فتحت عينيّ كان ما يزال في ملابسه، وعرفت فوراً

أنه يريد أن يرد على سؤال الصباح، فقد كانت تلك هي طريقته الساذجة التى لم يستطع أبداً إتقان تمثيلها. أخذ يبحث فى البدء عن شيء لا يريده، ثم التفت إليّ ومضى كأنه يكمل حديثاً قوطع للحظة واحدة: «لقد رأيته ينزف حياته بعيني، كانوا يحملونه ملفوفاً بمعطفين ملوثين فوق الدرج، وأخذت ذراعه المتدلية بين الرجال عارية صفراء تهتز جيئة وذهاباً كأنها تدعوني إلى اللحاق به، فارتقيت الدرج وأنا أنشج، بين خطوات الرجال الثقيلة الثابتة. قولي إنني خيالي. ولكنني لم أنسَ ذلك أبداً.. وسأقول لك سراً لم أقله لإنسان، إنني أذكر ذات يوم أنني اندفعت إلى غرفتهما هناك. لم أعد أذكر لماذا، ولكن فور أن فتحت الباب واجتزت العتبة شهدتهما معاً في السرير، أعتقد أنهما كانا عاريين، ولكنني لم أرَ إلا ذراعه، ذراعه العارية السمراء القوية حول خاصرتها البيضاء، درت على عقبي مغمضاً عيني وأخذت أعدو، وجاءني فى اليوم التالى وأجلسني أمامه وأخذ يحكي. لست أذكر شيئاً الآن، ولكن هذا هو كل ما أذكره من والدي، كل شيء. هذا هو والدي كله.. هذا هو.. مجرّد ذراع: مرة تضاجع أمي ومرة مضرّجة بالموت.. هذا هو والدي كله. كله.

صغير، كلهم يقولون ذلك، صغير. وها أنت ذا من فرط صغرك،

مكبٌ في هذا الفراغ المطلق كفقاعة هواء عائمة حيث لا يراها أحد، وحيث لا تستطيع أن تختار طريقها. ربما كان أفضل لك أن تمضي عمرك راكعاً ها هنا، مكباً، يكاد جبينك يمس الأرض بانتظار أن تركلك قدم ثقيلة، فتنتصب واقفاً والذل يتآكلك في جسدك كالجرب. ولكنك هنا ستفتقد حتى نظرة سالم التي ما تزال تشتعل في أحشائك، حتى هذا التشييع لذلك الأبدي ستفتقده هنا. لن يتبقى ثمة سوط يجلدك مثلما فعل سوط سالم طوال أعوام من الفراغ والصمت خلّفها وراءه حين ذهب. أوقفني ذات يوم بعد أن مضى أسبوع واحد فقط على دخولهم إلى غزة، وسألني وهو يشبك ذراعه في ذراعي:

- ألم تشتهِ يوماً أن تطلق رصاصة في معركة فاتتك دون أن تطلق فيها أية رصاصه؟

وفجأة أخذت أرتعد، فها هو ذا الرجل الخطر على بعد شبر واحد مني فقط. ولكنه مضى كأنه لم يشعر بجسدي يرتجف تحت ذراعه: «لقد قتلوا أباك، كما أعلم، وأغلب الظن أنك عشت تعلك أسنانك وتتوعد وتقول لو.. حسناً.» ووقف فجأة وغاصت الابتسامة في وجنتيه المرتفعتين وضاقت عيناه: «لدينا كل شيء فهل تأتي؟» ولكنهم ساقونا في اليوم التالي إلى ما وراء المعسكر، وأوقفونا صفاً واحداً. زكريا. زكريا. زكريا. كنت أتوقع ذلك ولم يصدقني أحد. وفقط

حين اقتادوه إلى ما وراء الجدار رأيته بعيني يشيع زكريا باحتقار جارح. لقد اكتسى وجهه فجأة وبلا تردد بتلك الملامح الراعبة الجامدة والمتكبرة التي تتخذها عادة وجوه الذين يعرفون أنهم سيموتون في ساحة عامة، وتحت أنظار الناس جميعاً، وفي سبيل شيء يحترمه الناس كلهم، ثم كففنا عن النظر إليه، وأخذنا ننظر إلى زكريا واقفاً أمامنا، مشبكاً أصابعه ناظراً إلى الأرض، وتحت زخّ المطر انتظرنا بترقب صوت الطلقة اليتيمة التي أطلقت وراءنا عن كثب، فاهتزّ زكريا كأنه تلقاها في بطنه وانحنى قليلاً، وتوقعنا أن يسقط، ثم سمعنا الطلقة الأخرى وعيوننا جميعاً كأنما بالاتفاق مصوّبة إليه وهو واقف أمامنا تماماً. وخَشَّت الأرض، وعاد الضابط وعلى وجهه ابتسامة رضا صغيرة وصاح بنا:

- انصرفوا إلى بيوتكم. لقد شهدتم ما فيه الكفاية.

فحمل كل منا ذله الخاص، وانزلقنا إلى المعسكر من جديد.

**ودخل البيت هادئاً وجافاً وجلس وأخذ يعضّ شفته وهو ينظر إليّ، ثم نهض ودخل إلى المطبخ، ومن هناك أبلغني «لقد قتلوا سالماً اليوم وغداً قد يجيء دور أي منا.» والتحقت به ورأيته يملأ الإبريق ماء. كان لا يشرب إلا من الإبريق. ولاحظت اصفرار وجهه. وبعد أن شرب التفت إليّ:**

**- قد يكون دوري أنا غداً.**

**فخرجت من المطبخ ومضيت إلى الشباك، وأحسست بخطواته ورائي فقلت:**

**- دورك أنت؟ لماذا؟ أنت لم تفعل شيئاً، لقد قتلوا سالماً لأنه... أنت تعرف سالماً على أي حال.. فلماذا يقتلونك أنت؟**

وأغلب الظن أنها كانت تريد أن تطمئنني ولم تعرف أبداً أنها حملتني ذلاً جديداً، لماذا يقتلونك أنت؟ تافه آخر لا بأس من أن يكمل حياته تافهاً ويموت تافهاً، يموت رخيصاً ها هنا مكباً **فوقي كأن الريح الباردة ذوبت عظامه فجأة فسقط دون أن يعي. وسوف يضحى هيكلاً مقدداً بالشمس والرمل إلى الأبد، كأنه علامة طريق لا ترشد إلا لضياع بلا قرار.**

ومرة أخرى نقبت الظلام بعينيّ أبحث عن الساعة المعلقة أمامي، لا بد أنها تقترب من منتصف الليل، وكنت قد اعتدت الظلمة كما يبدو، فشهدتهما في الضوء الرمادي الكامد، يقتربان من بعضهما بتحفز ولكن بثبات: دقيقين أسودين فوق التماع البياض الناصع المستدير، وأخذت خطواتهما تدق بتسارع لاهث في انتظار لحظة اللقاء الصاخبة، فيما انقلب زكريا إلى جنبه الآخر، وأخذ يغطّ ببحة عميقة مغوصاً في أحلامه. وركزت بصري قدر ما

استطعت على ذلك العقرب الأسود وهو يزحف فوق ميناء الساعة الأبيض وفكرت: أي جهد يبذله طوال يومه من أجل لقاء عابر، ولا وقوف فيه مع ذلك الرمح القصير الآخر الذي ينتظره ببرود معلقاً كالوتد على رأسه؟ ورغم ذلك فلو أنهما التقيا وتعانقا وتوقفا هناك لماتا فوراً، مثل كل الرغبات التي يفسدها ويصغرها أن تتحقق، وفي اللحظة التالية خَشَّت الساعة وتوقّفت هنيهة عن الدق، فبدت وقورة تعتزم إعلان خبر رهيب على مسمع من حشود تقف صامتة أمام جلالها، وقفز العقرب الكبير فالتحم تماماً بالعقرب الصغير، وغابا معاً في قرع معدني صاخب لاثنتي عشرة دقة، وجاءت آخر الدقات كانتفاضة متعبة لدفقة المنيّ الأخيرة. وما لبث العقرب الكبير أن انسلّ ومضى يبتعد قارعاً خطوته المفردة في الفراغ. منتصف الليل. وبعد أربع ساعات على الأكثر سيولد الضوء عدواً لدوداً وقاسياً للهاربين جميعاً. وفجأة أخذ ينبض في أحشائي، وشعرت بحركته الصغيرة تدفق في بدني، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أحسه فيها يتحرك بعيداً في ظلام مجهول ولا نهائي. لقد بدت حركته صغيرة مثل انتفاضة عصفور مطبق عليه في كفين محكمتي الإغلاق. وفي اللحظة التالية شككت أن يكون ذلك حقيقياً، فوضعت كفي مفروشة فوقه تماماً، ولكنه ظل صامتاً

وبعيداً وربما غاضباً. وسمّيته حامداً، إلا إنني تراجعت وأخذت أبكي فجأة، بلا سبب أو بسبب كل شيء دفعة واحدة.

**وكنت أعرف أن ذلك سيحدث، فقد انطلق شهاب ارجوانيّ صغير من وراء الهضبة، وأخذ يتسلق العتمة مندفعاً بنطّات عصبية جارّاً وراءه ذيلاً مقطّعاً من الشرر الأزرق، حتى إذا ما استنفد جهده، انفجر بصوت أجوف، وتحول إلى سحابة بنفسجية متوهّجة ظلّت معلّقة بصورة ثابتة على علوّ منخفض في نهاية نصف قوس من الدخان الأبيض، رسمه انقذاف الشهب، ثم أخذت السحابة تغيم شيئاً فشيئاً وتمطر شرراً صغيراً. لقد أضيئت الأرض فجأة وبدت غامضة أكثر مما كانت، وغير حقيقية على الإطلاق.** ولأول مرة منذ بدأت خطواتي في هذه الصحراء اجتاحني رعب لا مثيل له. وبدا لي أن الهضبة المسطحة أمامي مباشرة، والتي أرساها الضوء فجأة ولأول مرة قد تكون مطوية على عفريت أو رجل أو نبيّ، ليس بوسع أحد أن يخمّن. لقد حاولت جهدي أن أكبح أعصابي وعضلات فخذيّ التي أخذت ترتعش كأنها حيوان جموح. أمسكت نفسي وحاولت أن أفكر: لا شك أن جماعة أو رجلاً وراء الهضبة قد أطلق إشارة ضوء. وأورثني يقيني بوحدتي المطلقة مزيداً من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعاً وحشياً، فسيطرت تماماً ودفعة واحدة على

أنفاسي وحركاتي ورأسي، واستلقيت على الأرض شاداً نفسي إليها قدر ما في جسدي بأجمعه أن يفعل. أن يطلق رجل ما إشارة ضوء من مسدسه، يعني أنه رجل من هنا همّه أن يكتشفوه. وأورثتني هذه النقطة شعوراً بأنني أواجه، بالضبط، شيئاً معاكساً، فها أنذا أشد جسدي إلى الأرض ما وسعني ذلك كي لا أكتشف. وراء الهضبة، يوجد من يطلق إلى السماء ضوءاً ساطعاً كي يكتشف. ورغم ذلك فقد يكون كلانا ضائعاً أيضاً. **كان جاهلاً تماماً ولكن الخطر الغامض الذي فاجأه دون لحظة تفكر واحدة، وضع غرائزه كلها في مقدمة أصابعه، فانبطح جامداً ملتصقاً تماماً بصدري، أحس نبضه يسيل إليّ دافئاً وثابتاً فيما مضى الصمت المطبق ينقل إليه عبر مسافة لا تقدر، أصوات خطوات ثقيلة تنسحب فوق الرمل الناعم وراء الهضبة تماماً.** لقد أخذت حواسي جميعاً تعمل دفعة واحدة. ومضيت أقيس أصوات الخطوات البعيدة، فتبدو وكأنها تتجه نحوي ببطء وحذر، ولأول مرة في حياتي افتقدت السلاح فعلاً هنا، حيث ليس بوسع المرء أن يحصل على حجر أو على عصا. وظهر رأس واحد بادئ الأمر، فوق الهضبة مباشرة، وكان بالوسع مشاهدته كرة أشد سواداً من سواد السماء وراءها. وبدا متردداً للحظة كأنه هو الآخر يستشعر خطراً غامضاً، ثم أخذ يتسلق ببطء محنياً بعض الشيء. وفي اللحظة التالية

وقف فوق قمة التل المسطحة، فبدا خيالاً قاتماً لتمثال حجري دبت فيه روح شبحية، فأخذ ينزلق فوق السفح بحذر، كان يتجه نحوي تماماً، فكتمت أنفاسي حيث يستطيع الصمت المحايد أن يحمل كل شيء. كنت مسلحاً بقدرتي على مفاجأته فقط. وأورثني هذا السلاح شعوراً بقوة مجهولة تعمل إلى جانبي. لقد أخذت أصوات خطواته تعلو بوضوح، وخمّنت أنه لا بد أن يكون مسلحاً، فرجل وحيد في الصحراء مثله، يحمل مسدس إشارة، لا ينسى أن يحمل سلاحاً آخر، وربما كان جندياً مدرباً على فنون الصدام المباشر والجسدي. وخيّل إليّ أنه لو مرّ بعيداً عني مترين فقط، لانتهى كل شيء بسلام. ولكن يبدو أنه كان يتجه إليّ مباشرة وكأنه يقصدني قصداً. وفجأة صار أمامي تماماً فدفعتني الأرض دفعاً إلى فوق ووقعنا معاً. وفي اللحظة التي أمسكت فيها عضديه بكفيّ وأنا أضغط جسدي فوقه، تيقنت أنني أقوى منه. وبتصلب وحذر، رفعت ركبتي ووضعتها بين فخذيه، فأخذ يئن بصوت واهن، ثم قال شيئاً. وقبل أن أترك له لحظة تفكير واحـدة، خليت إحدى يديه ونثرت حفنة رمل في وجهه. وهكذا تيسرت لي فرصة تفتيشه بدقة: لقد عثرت في البدء على رشاشه الحديدي الصغير معلقاً فوق كتفه فانتزعته وطوّحت به بعيداً، لست أدري لماذا، ولكنني احتفظت بالسكين الطويلة، وخلصته من

مسدس الإشارة. وتنفس الصعداء. ولكن المفاجأة كانت قد شلته نهائياً، فاحتفظ بجسده مطروحاً كما كان، فيما مضى يتحدث دون انقطاع، مكرراً جملة واحدة مرة وراء الأخرى. ثم جلس بهدوء، وأخذ يمسح عينيه بأصابعه، ويبصق التراب من بين أسنانه. ومرة أخرى، قذف جملة مقطعة كأنها شتيمة، فقلت له اخرس. عندها فقط وضع كفيه بتحفز فوق التراب، وأخذ يحدق حواليه مذهولاً، وبسرعة لا تصدق انتصب واقفاً وتعلق بعنقي بكفيه الدقيقتين القاسيتين، ولكنه حين أحس بالسكين تضغط فوق بطنه تراجع وأخذ ينظر حواليه مرة أخرى محتاراً، وفجأة اكتشفت أنه لم يستسلم أمام قوتي، ولكنه لم يقاوم على الإطلاق لاعتقاده بأنه صادف أصدقاء له. وكان غاضباً من المزاح أو من الخطأ، ولكنه لم يحسب أبداً أنه سيستمع فجأة إلى كلمة عربية في هذا المكان البعيد. ويبدو أنه احتاج إلى وقت طويل صعب كي يصدق، فقد ظل واقفاً محتاراً يضرب كفيه على ساقيه، وأخيراً جلس محتوياً رأسه بين كفيه، فجلست إلى جانبه ومقبض السكين في يدي. **وكان الانتظار قد أضحى عادياً ومألوفاً، فحسبت أنه من الممكن أن أنام الآن، ولكن ذلك كان عبثاً تماماً. وأخذت أتصوره طفلاً يواجه عالماً غريباً ومتوحشاً وخشناً مثل لعبة صغيرة محطمة تتوزع شظاياها رقعة لا تستطيع ذراعاه الصغيرتان**

**الوصول إلى أطرافها. وفجأة قررت أن أراها. وعرفت تماماً، تلك اللحظة، أن هذا هو أول شيء سأفعله في الصباح، سأذهب إليها وأدق الباب وأقول لها: «أنا ضرّتك» وسأتركها تنظر إلي النظرة التي تشاء، ولكنني سأعرفها، وسأعرف كيف أتدبر أمري معه ومعها بعد ذلك. إنه من العبث الجلوس هنا والانتظار، وسوف أحكم على نفسي بالموت لو سمحت له أن يعتبرني مجرد ممر في حياته بين مدرسته وبيتها يبصق منيّة فيّ ويمضي.. أي انتظار يا مريم، أي انتظار طويل ينتهي بك إلى مجرد ممر! أي انتظار! تدق خطواته فوق الجدار طوال الليل وهي تعبر فوقك في الطريق من.. والطريق إلى.. تدق. تدق. تدق. وتتسرب من بين أصابعك كالرمل، وتنتهي بك الرحلة الطويلة إلى مجرد هذه التفاهة. ممر. فوقك تعبر كل الأشياء التي أردتها أن تكون لك، ولكنها لن تكون أبداً لك.**

كانا في ذلك الخلاء المترامي جالسين كشبحين لا يفصل بينهما إلا نصل، وظهرا كشيئين غير حقيقيين تحوّم حولهما ريح الموت الباردة، بانتظار لحظة الحقيقة الوحيدة التي بدت بعيدة عن كتفيهما القريبتين إلى بعضهما قرباً لا يصدق. لقد بدا ارتطامهما ببعضهما في ذلك المدى اللانهائي قدراً غريباً وربما مصادفاً، ولكن لا مفر منه، وقد جلسا معاً يستوعبانه ليصدقاه، وأخيراً سألته: **أين كنت؟** فرفع رأسه

وحاول أن يستشف الظلمة ليراه عن كثب، إلا إن الظلام كان حالكاً تماماً، فأخذ يمضغ كلمة واحدة وبصق، **فنعرته برأس السكين المثبت في خاصرته وسألته مرة أخرى: أين كنت؟** فصمت قليلاً، وهو يفكر بترو، ثم فرش كفيه أمامه يائساً وهز رأسه، وقذف كلمة مقطوعة وحاول أن ينهض. **ولكنني أجلسته بعنف،** فاستسلم فارشاً كفيه أمامه، محتاراً مرة أخرى. **وحاولت أن أكون هادئاً، فسألته من جديد: «هل تبعد الظاهرية كثيراً عن هنا؟»** ولكنه أخذ يهز كتفيه ويفرش يديه أمامه. **وفجأة تذكرت إشارة الضوء. لا شك أنه يتوقع وجود دورية ما في مكان قريب، وانتابني الندم لأنني أطرحت الرشاش، ولكنني على أي حال لا أعرف كيف يستعمل، وربما كان من الخير أن لا يستعمل، فصوته جدير بإحداث ما يشبه الرعد في هذا الصمت المطبق يصل إلى أطراف الصحراء، أما الآن فأنا أمتلك رهينة لا أعرف أين آخذها، ولا أعرف كيف أستفيد منها، ربما كان من الأفضل لو ذبحته فوراً أثناء صراعنا القصير. أما الآن فيبدو ذلك مستحيلاً وفوق طاقتي ولا جدوى منه على الإطلاق. وكنت أحسه وأتتبع أنفاسه إلى جانبي، فيبدو متعباً وضائعاً ومحتاراً، ولكنه متحفز وبانتظار مفاجأة تنبع من بين قدميه. وفجأة بدت لي ساعات الليل كلها مجرد حلم بطيء رهيب لا يمكن أن يصدق،**

ضياع بلا قرار، وسقوط حافل بالكوابيس الوحشية. وها أنذا من جديد في وجه لحظة جديدة لا أعرف كيف أتدبرها، فأخذت أبتسم بادئ الأمر ثم انفجرت بالضحك فجأة. فانقلب زكريا على جنبه ونظر إلي، ثم عاد فنام مرة أخرى كأنه اعتقد أنه هو الآخر مستغرق في حلم جنوني. قد تكون لا تعرف غير العبرية فهذا لا يهم. فقط اسمع، أليس من المثير حقاً أن نلتقي في هذا الخلاء، مباشرة، بالشكل الذي حصل، ثم لا نستطيع أن نتحدث؟ وظل وجهه متجهاً إلي غامضاً ومتردداً وشاكاً بعض الشيء، ولكنه كان خائفاً بلا شك. أما أنا، فكنت قد تجاوزت الخوف إلى شعور غريب لا يفسر. وعلى أي حال فليس بوسعك أن تظل شبحاً بهذه الصورة، يجب أن نجد لك اسماً وحياة ما، لدينا متسع من الوقت لنفعل. وحتى يجدوك وراء أنوف كشافاتهم وكلابهم، سنكون قد انتهينا من خلقك، وعندها يصبح ذبحك عملاً له قيمة ما. واحد فقط يجب أن يظل موجوداً: أنا أو هي، وليس بوسع الشيطان نفسه أن يعيش معكما معاً، كوهمين، كدفتي مكبس أنسحق بينهما. فدعنا نبدأ بهدوء: ما اسمك؟ عبث، حتى لو كنت تفهم ما أقول، فلن تقول الحقيقة. إننا ندور في حلقة مفرغة، والوقت لا يمكن أن يكون ضدنا نحن الاثنين معاً، بصورة متساوية، فقد يكونون أقرب إليك

مما أتصور ولكنك أقرب إليّ مما يتصورون، والقصة كما ترى، قصة مسافة ليس غير، وربما زمن أيضاً. حسناً، ولكنني لا أكترث كثيراً بالزمن كما ترى، والمسافة لصالحي فأنت أقرب إلى نصل سلاحي مما أنا إلى فوهات بنادقهم. وهناك قضية أخرى لها قيمتها، ويجب أن تحسب حسابها: أن تقتل أنت هنا على بعد خطوات منهم، على بعد خطوات من معسكرك، ربما، هو عمل أخطر من أن اقتل أنا، مجرد عدو اقتحم عليكم قلعتكم وكان وحده تماماً، بلا سلاح.. الأمور هنا نسبية تماماً، وهي لصالحي أيضاً، وهذا شيء غريب، فقبل دقائق فقط كان كل شيء في هذا الكون ضدي تماماً. وكانت الأمور كلها في غزة وفي الأردن تعمل في غير صالحي. وكنت أقف هنا، هنا بالضبط، في رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب. فتعال أقل لك شيئاً مهماً: ليس لدي ما أخسره الآن، ولذلك فقد فاتت عليك فرصة أن تجعلني ربحاً. لو استطعت فقط أن أجعلها تفهم بأنني لست ضدها، وأن الأمور كلها سارت دون أن تكون فيها، ولكن ما الذي سيهمها من الكلام، وقد أصبحت زوجة ثانية في حضن زوجها؟ وتحت ألسنة الجيران والنساء سأُعلك، صباح مساء: هذه هي التي سرقت زوج فتحية، المسكينة لها منه خمسة أولاد يكرجون في الشارع أمام عيون الله والناس. وأنت ما الذي ستقوله؟ أنت، أنت،

أنت، ما الذي سأعنيه لك؟ وسيقولون: كاد أخوها يجن فهرب بعاره، لقد وضعت ولدها الأول منه بعد خمسة شهور من الزواج فقط، يا للعار! فليذهبوا جميعاً إلى جهنم. ولكن أنت، أنت، ماذا ستقول لهم؟ وسيقولون: لقد تزوجها مجاناً، كانت فتية ومهتاجة، ولها بيت فيه غرفتان وسريران ومقلاة، وقد أفلح في طرد أخيها الصغير الذي اختفى واختفت أخباره! كذابون. ولكن أنت، أنت ماذا ستقول يا زكريا؟ ماذا ستقول؟ ليس لي الآن غيرك وقد انطفأ الجميع من حولي، فماذا ستقول؟

لقد أخذت السماء ترتفع، وفي نهاية الأفق امتد خيط رفيع ثابت من الغبش الرمادي وتوقف هناك. وفي اللحظة التالية، بدت النجوم أقل توقداً وأكثر بعداً. وأورثه الصمت الثقيل خوفاً جديداً فأخذ يتلفت حوله، لقد تحول انتظاره إلى مستنقع بلا قرار، وأضحى الزمن خصماً فيما بدا حامد جامداً عاقداً العزم على البقاء ها هنا حتى النهاية، وكان يتفوق على خصمه بأنه لم يكن ينتظر شيئاً، مثلي. بالنسبة لي كان يعني بقاء وليس عبوراً، كان ضائعاً، هو الآخر، ولكن ذلك لم يكن يعني بالنسبة له شيئاً، ليس لأنه لا يعرف، ولكن لأنه لم يكن يريد، بعد، الذهاب إلى أي مكان. وقد حوصر بضراوة منذ أول الليل في هذه الرقعة التي تبقت فأضحت مملكته. **وفجأة تذكرته**

**فاستدرت إليه وسألته: هل تعرف رجلاً من غزة اسمه سالم؟ ولكنه لم يلتفت إلي، وظل ينظر إلى التراب بين قدميه، فقلت له: ليس ذلك فقط، بل ربما أنت الذي قتلته أيضاً، وعلى أي حال ستترك ضوء الصباح يكشف لي ذلك. وعندها فقط التفت إلي ومضى يحكي دون توقف، غاضباً عصبياً ينفض ذراعيه حوله، ويشير تارة وراءه وتارة أمامه، فدفعت رأس السكين إلى خاصرته فسكت وقلت له: لا تستعمل صوتك بعد أن فقدت مسدس الضوء، ثم إنني لا أفهم حرفاً واحداً مما تقول، وليس هنا من يفهم حرفاً مما تقول أيضاً. فلماذا تضيع وقتك؟**

ودقت دقتين وصمتت لحظة، ثم بدأت خطواته المفردة تقرع من جديد في رأسي وفوق الجدار: لقد منحتني هذا النعش، علقته أمامي، كي أدفنك فيه، ولكن خطواتك هي التي ستظل إلى الأبد تقرع حوله، ولن يدفن فيه إلا أنا، وحتى بعد أن أدفن في أعماقه ستظل خطواتك تقرع فيه وحوله وفوقه إلى الأبد، هذا النعش الصغير المعلق سيحتوينا جميعاً. وستعلكنا خطواتك ونحن فيه. وستظل أنت فقط خارجه تكمل رحلتك التي لا تنتهي. لا تنتهي؟ يا إلهي! ليس بوسع أحد غيرك أن يعرف.

**لقد خطر له خاطر مفاجئ، فانتزع حزامه ومضى يعقد كفيه**

وراء ظهره بحرص وعناية دون أن يواجه بأي نوع من المقاومة، حتى إذا ما انتهى عاد إلى مكانه وجلس واضعاً سكينه في حضنه، محتوياً رأسه بين كفيه فيما أخذت الريح الباردة تنحدر من الهضبة صامتة وجارحة، فشد فخذيه إلى صدره، ومن بعيد جاء صوت هدير مكتوم، إلا إن الظلام الذي كان بدأ يشف شيئاً فشيئاً كان ما زال مخيماً في كل مكان، قام فوقف وأخذ ينظر حوله منقباً في الظلمة عن أثر ثم عاد. ومضى ينقب في جيوبه حتى إذا لامسَت أصابعي محفظته الرقيقة سحبتها وفتشتها، كان من العسير معرفة أية قيمة لأية واحدة من الأوراق التي كانت فيها بسبب الظلمة فاحتفظت بها كلها في جيب قميصي فيما كان ينظر إليّ محتاراً مصراً على انتظار معجزة تنبع من بين قدميه، ولكنني كنت واثقاً من أنه سيكتشف في أية لحظة أن المعجزة التي ينتظرها ستعني، في اللحظة التي ستأتي فيها، حتفه. ولست أدري كيف سيستقبل ذلك الاكتشاف الذي لا بد منه، وفجأة يبدو أنه سمع الهدير البعيد فانتفض وحدّق حواليه ثم إليّ، وعندها فقط لوّحت بالسكين كي أساعده على اكتشاف معنى المعجزة التي ينتظرها فتكوّم من جديد في مكانه. وفي اللحظة التالية حدث شيء غريب: كنت واقفاً وكان مكوّماً تحت قدمي مباشرة، وفجاة خيّل إليّ أن كل شيء في هذه الصحراء الصامتة، كل

ذرّة رمل، كل خفقة هواء، كل نجمة، كل نقطة ظلام، تحدّق إلينا معاً مثلما كنا نحدق إلى زكريا ملقى تحت قدمي الضابط بانتظار لحظة الموت الرهيبة. وكان سالم يقف معنا في صف مستقيم، ورأسه يعمل كعش نحل مهتاج، وقبل أن يعرف أحد ماذا سيحدث أخذ زكريا يصيح: «أنا أدلّكم على سالم»، إلا إن سالم فوّت عليه أن يكون خائناً حقيقياً فتقدم ثلاث خطوات ثابتة ووقف. وتحت قدميه المتجهتين إلى الموت تفجّرت الصحراء الصامتة بلا هوادة. وأخذت سنوات الصمت المهلكة تمطر فوقي: لماذا يقتلونك؟ وجاء سالم فأمسك بذراعي: «أغلب الظن أنك أمضيت عمرك تعلك أسنانك وتقول لو! حسناً. تعال!» وانزلقتْ يده العارية تحت المعطفين المضرجين فيما كان يرفعه الرجال على السلم، ومضت تهتز جيئة وذهاباً وكأنها دعوة للحاق. وجاءت طلقة واحدة من وراء أنقاض الجدار فانحنى زكريا أمامنا كأنه صُوبت إليه من عيوننا المتجهة إليه بصمت، ثم جاءت أم سالم إليّ: «ذهبت في الليل إلى هناك ولكنني لم أجده، لقد دفنوه خلسة ألا تعرف أين دفنوه؟ ولدي، كبدي، حشاشتي، ما تبقى لي.» وأخذ الزورق المثقل يهتز فوق سطح العالم الأسود المضطرم. أين دفنوه؟ لقد حَمَلت أمي السر معها وتركتنا. ما تبقى لها. ما تبقى لكم. ما تبقى لي. حساب البقايا. حساب الخسارة. حساب الموت. ما

تبقى لي في العالم كله: ممر من الرمال السوداء، عبّارة بين خسارتين، نفق مسدود من طرفيه. كله مؤجل، كله مؤجل، ثم صفق الباب وخلع نعليه وجلس، كأن البيت بيته، ولو كنت أملك خشبة وشبر أرض لأعدمته، ولكنها لم تقل شيئاً، وتركتني أمضي دون كلمة نداء واحدة. واجتاحتني رعشة مفاجئة، **فأخذت أنتفض: لقد حدث شيء ما له، في هذه اللحظة بالذات.. سيقول عني مجنونة لو أيقظته وقلت له: «حدث شيء لحامد هذه اللحظة. لقد أحسست ذلك في أعماقي.» وفي اللحظة ذاتها دفعني الفراش، فقمت وتحسست طريقي إلى المطبخ، كان الصمت ثقيلاً، فأخذت خطوات الساعة تعبر الباب إلى أذني موهنة ولكنها صامدة. شربت، فقط لأقوم بعمل أي شيء، ثم فتحت الباب ببطء وهدوء، وحدقت إلى السلم المعتم، ومضيت إلى الشباك ونظرت إلى الشارع، صامتاً يلتمع تحت الأضواء الباهتة المعلقة، خالياً تماماً، فعدت إلى المطبخ. وهناك تحرك مرة أخرى تلك الحركة الصغيرة الغاضبة، العابرة ولكن التي لا تنسى، فتوقفت متكئة على الباب وسميته حامداً، وأخذت أبكي. وكانت الريح الباردة قد بدأت تعبر من الشباك المفتوح فتهزني وتجرحني، فخطوت مرة أخرى إلى الغرفة كي أحضر ما أتدثر به. وحين اقتربت من السرير، تصاعد**

تنفسه الثقيل المنتظم إلى أذني وتساءلت: «ترى، هل يقبل أن أسميه حامداً؟» وحين أخذت البطانية تساءلت مرة أخرى: «ترى هل يقبل حامد أن أسمي ابن زكريا باسمه؟» إلا إنني فضلت أن أعود إلى المطبخ حيث أشعلت النار بهدوء لأشرب شاياً ساخناً يبعث في أوصالي وأوصاله الصغيرة دفأً ما، وفيما كنت أحدق في اللهب الأزرق المتأجج عبرت فكرة عاصفة في رأسي: «لماذا أسميه حامداً؟ إنهما لا يطيقان النظر إلى بعضهما؟ كان يسميه: النتن، هذا كل شيء، النتن، ولم يقل كلمة واحدة أخرى عنه، أما زكريا فقد كان يسميه الصغير، وبالنسبة له ظل صغيراً دائماً لا يعرف كيف يواجه الحياة؟ ولا كيف يتدبر أمره فيها، فهل بالوسع جمعهما مرة أخرى؟» لقد بدا ذلك مستحيلاً تماماً وقاتلاً أيضاً. وتذكرت أن زكريا لم يرده أبداً، وأنه ما زال يأمل أن أتخلص منه بطريقة أو بأخرى، قطعة الصراخ الجهنمية التي ستجعلك زجاجة حليب بشرية ليس أكثر. أيمكن أن يكون القدر مرتباً على هذه الصورة الرهيبة يا إلهي؟ أيمكن؟ جاء حامد من ورائي هادئاً كعادته، وجلس على الكرسي واضعاً مسندها بين فخذيه متكئاً عليها بذراعيه وقال: «إنك تصنعين الشاي بصورة رائعة.. هل حسبت حسابي؟» وناولته كأسه فأخذ يرتشفه ويعذّب نفسه بحرارته

اللاذعة ويتلمظ، وكان قد جاء ليقول شيئاً بعد أيام من الصمت الغاضب فلم أنظر إليه مباشرة لأترك له المجال كما يحب، وبلا مقدمات بدأ يقول فكرته: «حسناً.. ألا تستطيعين بطريقة أو بأخرى التخلص منه؟ إنه ابن حرام على أي حال»، فلم أجب، ويبدو أنه أحس بأن دخوله للموضوع كان دخولاً غاضباً، فقام واتجه إليّ ثم واجهني تماماً: «ليس بوسعي أن أمنع الزواج فقد رتبتماه رغم إرادتي.. ولكن..» وصمتَ مرة أخرى وتركني، وجاء صوته من وراء ظهري: «لدي أسباب لهذا الحديث الذي لا يعنيني. أتعتقدين حقاً أنه سيستحق الحياة ذلك الطفل الذي سينشأ في ظل رجل مثل زكريا؟» وتردد لحظة واحدة، ثم قالها كما اعتاد وكما توقعت: «النتن». وشددت على أسناني ثم خرجت فلحق بي وشدّني من ذراعي: «على أي حال ستتزوجينه بعد ساعات رغم كل شيء. فإذا كنت قد ارتضيت أن تخسري نفسك وتخسري زوجك فحاولي أن لا تخسري الطفل. إن الطريقة الوحيدة الباقية كي لا تخسريه هي التخلص منه..» وتركني وانزلق فوق السلم ثم صفق الباب. ما تبقى. ما تبقى لكم جميعاً. فما الذي تبقى لنا وبيننا أيها الشبح الصامت الغاضب؟ إن حياتي وموتك يلتحمان بصورة لا تستطيع أنت، ولا أستطيع أنا فكهما. ورغم ذلك فلا يعرف أحد كيف يجري

الحساب ها هنا. ونبعت نسمة ريح حملت معها سوطاً من الرمل الناعم على علو منخفض جلد أقدامهما، ومضت الريح فغطت كل شيء؛ آثار الخطوات، وقطعة الحديد البعيدة التي كانت سلاحاً. وانطلقت بصفير خافت تسابق نفسها نحو الجنوب، فذكرتهما معاً إنني هنا وإنني الطرف الذي يحسب حسابه الأول في هذا الانتظار المر، وفيما كان الصفير يذوب في العتمة، ملتفاً حول نفسه، عنيفاً جافاً ومجهولاً، أحسا معاً بالمدى الذي لا ينتهي، البعيد والقوي والصامد، المحيط بهما من كل جانب والممتد إلى أبعد مما يحسبان، وأعمق مما يستطيعان التخمين. الرعب. الهواء الشفاف المحمل بكل المفاجآت جنباً إلى جنب. الجسد اللانهائي الذي يحب ويكره ولا ينسى. المنتسب. المطوي على زمن مشرش إلى أعمق أعماقه. الحب والصمت. العنف والغضب. ثم، وقبل كل شيء وفوقه: الخضوع. ووقفت أرشف الشاي الساخن أمام شباك المطبخ فيما مضت عربة خشبية محطمة يجرها حمار صغير تتدحرج متعبة في أول الطريق، ويهتز فوقها رجل نائم، وكان الحيوان المتعب يسير بطيئاً في خط متعرج، ويشمشم الطريق ملتقطاً شيئاً بين الفينة والأخرى، وبدا مسيرهما المستسلم في الليل طوافاً فوق تيار مخيف يسوقهما معاً، وكان قرع الحوافر البعيدة يختلط بصورة مشوشة مع

خطوات الساعة تدق في الجدار البعيد، دائرة حول نفسها، هي الأخرى، محمولة فوق سطح تيار لا يكبح ولا يُسبر غوره. وكان حامد يبتعد ويغوص، وغابت عني ملامحه برهة، وعبثاً حاولت استرجاعه، فقد ذاب من رأسي، كما ذاب ظله حين طواه الباب وغابت أصوات خطواته فوق السلم. وأضحى جزءاً من ذلك التيار الغامض الذي يسيل تحت حياتنا، ويحملنا دون أن نحس به دقيقة وراء دقيقة في يومنا الباهت، الطافي على سطحه المنساق بقوته الطاغية غير المحسوسة إلى حيث لا يعرف أحد، وتذكرت فجأة أنني ما زلت منذ أول الليل أحدق ملء عيني بالعتمة، محمولة دون أن أكتشف فوق ذراعيه الجبارتين، مطوّفة مثل بحار حطم الموج دفة سفينته الثقيلة، فمضى يستكشف عوالم أجبره التيار على عبورها دونما وعي. لقد كان وهماً مخيفاً إن اعتقدت لحظة واحدة أنه سيذهب، وأن بوسعي أن أغمض عيني وخطواته تنغرس فيهما كل لحظات الليل والنهار. سأكتب لك، إن وصلت. ولكنه إلى أمد لا يُعرف سيظل معلقاً بيني وبين أمه. وربما يظل معلقاً إلى الأبد. يخطو فوق جسدينا معاً في ذلك العالم الرهيب من المسافة والزمن الذي يفصل بيننا كأنه المجهول. ورغم ذلك فسيظل هنا كلما كان زكريا هنا. وورائي جاءت أصوات خطواته يجرها كأنه يلبس حذاءً من الفلين، لقد توقف هنيهة بادئ

الأمر في الغرفة الأخرى، ثم جاء إلى المطبخ ووقف ورائي:

- حسبتُ أنك تركت البيت! ماذا حصل لك؟ أنت لم تنامي للحظة واحدة.. ماذا حصل؟ أما زلتِ تفكرين بالصغير؟

- كم الساعة الآن؟

- لست أدري! ماذا؟ أتحسبين أنني أراقب الساعة وأنا نائم؟

واقترب بطيئاً كمن يستكشف المكان. ثم وقف وأخذ يحدق من النافذة إلى الطريق، ثم إلى السماء السوداء الجاثمة فوق سطوح البيوت الواطئة، وأكواخ التنك وغرف الطين في الجهة المقابلة.

- أوشك أن يطلع الفجر.. ماذا حدث لك؟

- لا أستطيع، لا أستطيع.. خطواته تملأ رأسي وتدق.

- خطوات من؟

- خطواته، حامد، لقد نسيته.

- مجنونة! تستمعين إلى خطواته؟

- خطواته.. مع كل دقة من دقات الساعة يخطو خطوة واحدة.. ألم يخطر على بالك أنه..

وسكت فجأة وأنا أنظر إليه، فيبدو جامداً وبعيداً وربما لم ير الساعة بعد، وعدت أنظر عبر الشباك، ولكنه وضع يده الثقيلة على

كتفي وجذبني، فاستدرت وواجهته تماماً، فأخذ يتحدث برفق وبلهجة حانية كأنه يتحدث إلى طفل:

- اسمعي يا مريم، إذا كانت تلك الساعة اللعينة تسبب لك الأرق فلديّ الحل. أتعرفين يا مريم، إذا أملناها قليلاً إلى الجانب توقف الرقاص، أنا أعرف هذا النوع اللعين من ساعات الحائط، لا يتحرك رقاصها إلا إذا كانت معلقة بصورة مستقيمة. كان عليك أن تقولي ذلك منذ أول الليل. تعالي.

واستدار وخطا خارجاً، إلا إنني لحقت به وسبقته إلى باب المطبخ وسددته بجسدي، فتوقف مدهوشاً وأخذ يحدق إليّ.

- لا، لا داعي لذلك. لم يعد بوسعي على أي حال أن أنام بعد أن مضى معظم الليل.. ثم إنها ليست الساعة فقط التي تدق.. إنما..

وتوقفت لحظة: كان ينظر إليّ، ما يزال، مدهوشاً، ولم أستطع التوقف فأشرت إلى بطني وأغمضت عيني، ومضيتُ أكمل:

- إنما هو أيضاً، يدق هنا.

- هو؟

وأخذت أراقبه، أراقب كفيه تنقبض أصابعهما وتنبسط على جنبيه كأنه، دون أن يصدق، يتحفز لمواجهة ما: غامضة وفتاكة. فيما

أخذَتْ الدوامة تنفتل مجنونة في حلقي:

- هو.. ابنك. لقد تحرك قبل قليل للمرة الأولى، تحرك مرتين.

وارتد إلى الوراء فرفعت عيني إلى وجهه: لقد ضاق جبينه فجأة وتحدّر خطان عميقان كجرحين بين حاجبيه. ووراءه، عبر النافذة، ارتفعت السماءُ فوق السطوح الواطئة لبيوت الطين والتنك تاركة خطاً رمادياً كثيفاً. ثم استدار وتركني أنظر إلى ظهره العريض محنياً قليلاً، فيما مضى بخطوات بطيئة إلى الشباك. ووقف هناك عاقداً كفيّه وراء ظهره. وجاء الصمت. ومعه دقت الساعة ثلاث دقات بعيدة وجوفاء ثم أخذت خطوة العكاز المفردة تدق من جديد دقاتها الصامدة العنيدة. وخيّل إليّ تلك اللحظة أن هذه الدقات هي صوت الصمت، وأن الصمت لا يكون بلا صوت، وإلا لما كان. ولما صار بالوسع أن يُحس على هذه الصورة الفريدة، المفعمة بالغربة والوحشة والمجهول. ولم أكن قد فوجئت به يدير ظهره مكشراً ويغرق في المشكلة، ولكنني استغربت أنه فوجئ بهذه الصورة رغم أنه كان يعرف. وكانت الدقات تحوم بيننا كطلقات رصاص قاتل. ورغبت في أن أحطم ذلك الانتظار الرهيب. انتظار أن يستدير ويقول شيئاً. وعجبت كيف جاء صوتي، كأن امرأة أخرى تحكي عبر حنجرتي، صوتاً هادئاً ذليلاً مذنباً:

- صار من الصعب أن نتخلص منه الآن.

وقذف من هناك جواباً كاملاً في كلمة واحدة:

- أعرف!

وصمت، وعاد الانتظار ينمو من جديد ممتداً بيننا كقطعة حديد، ليست جسراً وليست جداراً. قطعة حديد باردة فقط تجثم هناك معلقة في الهواء. وكانت مخالب الليل قد خلت أسطحة المعسكر، فأخذت السماء ترتفع ببطء كأنها نسر ثقيل في لحظات انطلاقه. ونبع المستقبل كله في جبيني للحظة خاطفة كبرق يضيء أمدية من المجهول الراعب، فأخذت أنتفض، وأحسستُ بغيابه رهيباً ولا يصدق، وينمو بدلاً من أن يذوب. وانتظرت. انتظرت. وبدا لي مخيفاً أن ننتظر معاً واقفين هناك، كلمته. أنا وهو في أحشائي يلتف مختبئاً. وبدأ يحكي، دون أن يلتفت بصوت خفيض بطيء. وكان علي أن أترصد صوته كي أسمعه يتموج فيما بيننا، كأنه يتجه إلي بنفس الدرجة التي يتجه فيها إلى الأشياء المحيطة بنا، والمغسولة بالضوء الرمادي الثقيل:

- طفل سادس؟ سادس! هل تتصورين ذلك؟ هل تتوقعين أن أرقص فرحاً؟ إنه الولد السادس! لقد نصحتك ألف مرة أن تتخلصي منه، ولكنك تعتقدين أنه شيء مثير ومهم.

وصمت لحظة واحدة، كأنه توقف عند فاصلة في كتاب كان يقرأه ببطء:

- والناس! الناس ماذا سيقولون؟ هذه فضيحة أخرى. طفل بعد خمسة أشهر من الزواج!

وكان واقفاً ينقب في غضبه هنا وهناك، عارضاً في جمل عصبية أسبابه، وخفت أن يمضي فيغطس في الشكوى، إلا إنه لم يتردد كثيراً أمام هذا الحقل الخصب:

- ستة أفواه عليّ أنا أن أطعمها. ثم أنت وهي أيضاً. إن هذا كله يحتاج إلى معجزة. آه منكن جميعاً، تعتقدن أن هذا هو مربط الرجل! هذه هي قطعة اللحم التي تشده إليكن! ولكنك، أنا أقول لك، على خطأ. فإن رجلاً عنده خمسة أولاد لا يكترث.

واستدار فواجهني، وكان الضوء الكامد المعلق على حافة السماء وراءه ينحدر فوق كتفيه بوهن فيبدو وجهه معتماً، وخطا خطوة واحدة ثم وقف:

- لو كان حامد، ذلك الصغير الملعون، ما يزال هنا...

إلا إنني كأنما بقوة مجهولة كانت تقف ورائي، رفعتُ يدي إلى أذني وأغلقتهما شادة فوقهما ما وسعني ذلك، فسقط صوته ولم يصل منه إلا حفيف غامض، فيما كان ينتصب أمامي ملوحاً بذراعيه

غاضباً حزيناً ومطعوناً في وقت واحد، ثم تقدم واجتازني، وشفتاه ما تزالان تتحركان بسرعة، إلا إن صوته كان يرتطم بكل الأشياء المحيطة بنا، ويرتد دونما ضجيج ويذوب في ذلك الضوء الرمادي الكريه الذي يشبه سطح مستنقع ظليل. وأمامه مباشرة كان صوت آخر ينبع من داخل جسدي ويدوي هناك مرتداً في رأسي إلى ألف صدى كأنه نباح كلب مجروح، طب فوقه برميل معدني فارغ: ليس بوسعنا التخلص منه بعد، ليس بوسعنا التخلص منه. وفجأة تكشّف لي وأنا واقفة هناك، أنه ليس بوسعي أيضاً التخلص من زكريا. وليس بوسعه أن يتخلص مني، وأنه لم يتبق لي، ثمة، إلا أن أمضي بقية شوطي، وكفيّ فوق أذنيّ، وأسناني تعض شفتيّ. وكان حامد يبتعد. يدق فوق جباهنا خطواته العنيدة بلا رحمة، فيبدو وقد ذوبه المدى، ولم يتبق منه إلا أصداء خطواته العنيدة التي لا تنتهي، آخر قطار غادر المحطة المهجورة، وتركنا على رصيفها المحطم، نستمع إلى صوت الصمت المفعم بالغربة والوحشة والمجهول يدق. يدق. يدق.

**وانبثق الضوء فجأة، فبدت الصحراء النائمة تحت الكثبان المسطحة، التي لا نهاية لها، أشد صمتاً وانتظاراً. ومن جديد، عاد الدم ينساب في عروقي مرة أخرى. وكان هو قد استسلم إلى جانبي مرهقاً، ومضى يقاوم رأسه الثقيل الذي أخذ يسقط رغماً**

عنه، إلى صدره. ثم فتح عينيه واستنشق نفساً عميقاً، وحاول أن يقف، إلا إنه لم يستطع، فأخذ ينظر إلي، لأول مرة، محاولاً أن يقول شيئاً. وبادلته النظر ببرود، وأخذت أمرر نصل السكين فوق حافة حذائي، فيصدر صريراً متطاولاً. وفي لحظة خاطفة رأيته حقاً، واستطعت أن ألتقط في أعماق عينيه اللامعتين اللتين بدتا سوداوين في حمام الضوء الرمادي الكامد الذي كان يغسلنا معاً، خوفاً حقيقياً وانتظاراً مهيضاً بائساً. وكأنه أحس بانتصاري الصغير المتوحد، فأطبق جفنيه هنيهة، وحين فتحهما مرة أخرى، كان ينظر إلى الأرض ورائي. وبذل محاولة ليزحف على مؤخرته، ثم مد عنقه وقال شيئاً، مشيراً إلى زجاجة معدنية كانت قد سقطت منه، كما يبدو، في غمار العراك الليلي، على بعد خطوتين من مكاني، إلا إنني لم أتحرك. وقلت له ببطء محاولاً كل جهدي أن يفهم: «لتمت عطشاً.» ولكنه مضى يشير بعنقه إلى المطّارة المعدنية من جديد. وبدا ظامئاً حقاً. فتناولتها وهززتها قرب أذني، فاصطفق داخلها ماء قليل، إلا إنني لم أفتحها. وبعد لحظة قذفتها إلى حيث كانت مرة أخرى. ونظرت إلى وجهه وشفتيه المفتوحتين تموجان بالغضب المشلول، وقلت له مرة أخرى ببطء: «لتمت عطشاً.» وعندها كرر محاولته، ليصل إليها زاحفاً

على مؤخرته وكعبي حذائه الثقيل، وحين دنا منها، سحبته من ياقته وأعدته إلى مكانه: «لتمت عطشاً.» ووراءه تماماً جاء قرص الشمس الأرجواني، وتعلق فوق الأفق المسطح، فاجتاحت الرمال موجة رعب مفاجئة، ما لبثت أن عبرتنا بدورها، فأخذنا ننظر من جديد إلى المطارة. ثم تلاقت أبصارنا مرة أخرى، فتبينت لون عينيه العسليتين، كان وجهه المصبوغ بلطعات الشمس الحارقة يبدو كوجه مريض، وكان شعر ناعم قد نبت في أسفل ذقنه وتحت سالفيه، ومن فتحتيّ كميّ قميصه بدت ذراعاه قويتين يكسوهما زغب أشقر ناعم. وفيما كان ينظر إلي بدوره، تناولت أوراقه من جيبي، إلا إنني لم أستفد منها شيئاً، ثم أخذت أنظر إلى صورته في هويته الصغيرة حيث بدا أكثر شباباً مما هو عليه هنا: كان شعره مفروقاً من جانبه، وكان يبتسم ابتسامه كبيرة، فيبدو مضحكاً. وتحتها كتب اسمه، كما يبدو بالعبرية. ودفعت الهوية أمام عينيه، وأشرت بإصبعي إلى حيث كُتب الاسم، إلا إنه هز رأسه بعنف، ثم أطبق شفتيه فابتسمت، وقلت له: «احتفظ لنفسك بهذا السر.» ونقبت بقية الأوراق، إلا إنني لم أجد شيئاً. وأخيراً قرأت على ختم ليلكي صغير في أسفل الهوية، حروفاً لاتينية، جاءت واضحة، إلى جانب حروف عبرية ملتفة على

بعضها: «يافا».

طويت الأوراق بعناية، ووضعتها في جيب سروالي، وغيرت مكاني، فجلست أمامه مباشرة، كانت الشمس قد أخذت تتسلق السماء ببطء ووقار، إلا إنها لم تكن كريهة بعد. وكان ينظر إلي بحذر وترقب، محاولاً استكشاف خطتي، ولكن الأكيد هو أنه لم يكن ليستطيع. ذلك أنني أنا نفسي كنت أجهلها. وتركته يدرسني برهة كافية. وحين كانت حواسه مركزة عليّ تماماً، بانتظار حركة أو كلمة، قلت له: «هيا، كن رجلاً طيباً ودعنا نتحدث عن يافا. إن الانتظار الصامت لن يأتي إلا بالرعب.» ولكنه ظل يحدق إلي بعينيه الضيقتين المتعبتين، كأنه لم يفهم شيئاً. «هيا! كيف انتهى الأمر بكل ذلك الحي، الذي كان يمتد بين جامع الشيخ حسن وحمام اليهود المحروق في المنشية؟» وفجأة، لست أدري لماذا بالضبط، أحسست إنه يفهمني تماماً، وإنه يتابعني وينتظر نهاية لذلك كله. فمضيت: «سيكون ذلك حديثاً مفيداً فأنا أعرف ذلك الحي تماماً، كنا نعيش هناك.» ولكن ذلك كله بدا عبثاً في نظره على أي حال، وكنت أود حقاً أن أبيّن له بأن ليس ثمة ما يستحق اهتمامه أكثر، فأنا لا أنوي أي شيء، وسنبقى جالسين هنا حتى.. حتى ماذا؟

ومن بعيد، صفرت ريح صغيرة، ومضت تكنس الرمل قادمة،

كأنما في سباق، نحونا. وحين وصلتنا غسلتنا بموجة مبكرة من القيظ، فأخذ يتحرك في مكانه قلقاً. وقفت واستكشفت الآفاق الأربعة التي كانت تحيطنا، رغم المسافات، كأنما بالجدران. إلا إن المدى وحده كان مبسوطاً هناك، مترامياً وصامتاً، ويغتسل بالشمس والوحشة. وأمامنا مباشرة التصقت الشمس قرصاً ملتهباً في جدار أشهب شديد العلو، فجلست مرة أخرى إلى جانبه، وفرشت أمامه كفيّ، لأقول له إن ليس ثمة ما بوسعنا فعله. ولكنه، بدل أن ينظر إلى كفيّ، مضى يراقب السكين التي أخذ نصلها الفولاذي يتوهج في الضوء ملقاة بين قدميّ، فتناولتها وسحبت نصلها من جديد فوق حافة حذائي، فانطلق الصرير المحذر كأنه عويل أخير. وعندها فقط نظر إلى عينيّ. ولمحت في وجهه، من جديد، تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز، فأدركت أنه سيكون بوسعي ذات لحظة أن أجز عنقه دون رجفة واحدة، وأن هذه اللحظة ستأتي لا محالة، تحت وقع البريق المرعوب في عينيه، وصرير نصل السكين فوق حذائي، والشمس اللاهبة التي كانت تجلد مؤخرة عنقي بلا هوادة. ووراءه تماماً كان أفق من الرمال تحت سماء بيضاء عالية يبدو وكأنه مسرح ستندفع فيه، حين يدق جرس ما، سيارات وكلاب ورجـال، يسوقون أمامهم

**رشاشات سوداء، ذات فوهات دقيقة. ولكنهم جميعاً سيظلون ملتصقين قرب مؤخرة المسرح، أمام تلك الخلفية الفارغة، إذ يكتشفون فجأة أن القصة إنما تجري هنا، وإنهم هم المتفرجون.**

وجاء مرة أخرى وأمسكني من كتفيّ وأدارني بعنف فواجهته. كان العالم وراء كفيّ المطبقتين فوق أذني صامتاً، ورأيت شفتيه تتحركان بعنف وسط وجهه الغاضب المتعب، إلا إنني لم أسمع شيئاً. ويبدو أنه أدرك ذلك، فأمسك زنديّ بكفيه القويتين وأنزل ذراعيّ إلى جنبي، فعاد ضجيج العالم يتدافع في أذني مجدداً. فوقه ومعه وفيه، مضت الساعة البعيدة المعلقة أمام السرير تدق، فتعبر الممر وتدخل إلى المطبخ حيث كنا نقف وجهاً لوجه صبيحة عرسنا. وفاتني أن أعد دقاتها المستغيثة التي كانت تندمج في صوته العالي، وتتحول معه إلى اصطفاق صنوج معدنية جبارة، تهز بدني هزاً.

- هل حسبت إنني تزوجتك لتنجبي لي ولداً أيتها العاهرة؟

وانفتحت فجأة، تلك البوابات الرهيبة من اللحم الطري، التي كانت تغلق عيني. وأحسست بالدمع يسيل متلاحقاً فوق وجنتيّ. وحاولت أن أسحب زنديّ من قبضتيه الحديديتين، إلا إنه شدهما من جديد. وفي اللحظة التالية، دخل خط رفيع من الشمس عبر النافذة ورائي، وشق وجهه من النصف، فبدا أشد غضباً وأعنف

تمزقاً:

- اسمعيني، وقولي غداً إن زكريا قال: إذا لم تستطيعي إسقاط ذلك القواد الصغير..

وأخذت، فجأة، أصرخ بكل ما في حنجرتي من قوة، محاولة أن أطفئ صوته في صراخ مجنون يملأ كل شيء. إلا إن صوته كان ما يزال يتفجر من بين شفتيه الراجفتين ويصب في أذني صباً عبر الضجيج الكثيف: «إذا لم تستطيعي إسقاطه فأنت طالقة.. طالقة.. طالقة.. هل تسمعين؟ طالقة.» وانسدّ حلقي فجأة فخيم صمت ثقيل مشحون بانتظار مر، **وتعالى عواء كلب، وما لبث أن أرتد من كل الاتجاهات، عواء متلاحقاً لاهثاً ممطوطاً. وتناهى، عبر ذلك كله، هدير شيطاني من مكان ليس بالوسع تعيينه.** وفجأة تحرك مرة ثالثة: انتفض في أحشائي تلك الانتفاضة الصغيرة المزدوجة كالارتعاد. ثم هطل في فخذيّ وركبتيّ فأغمضت عينيّ برهة صغيرة. إلا إن الصوت انقضّ فوقي من جديد وبلا هوادة:

- هل سمعت ما قلته لك؟

وهزني بعنف هزات متتالية وكرر:

- قولي أنك فهمت.

وفي اللحظة التالية جذبني إليه، ثم دفعني إلى الجدار وقبل

أن يستدير ارتطمتُ بالحائط. **ولمعت أمامي بنصلها الطويل المتوقد،** فوق الطاولة، فردني الجدار إليها كأنني لعبة مطاط، واحتوتها قبضتاي معاً وانسدل ذراعاي فوق كفي المطبقتين على مقبضها حتى أسفل بطني متشنجتين قاسيتين. واندفعنا مرة واحدة ونحن ننظر في عيني بعضنا مباشرة. كان النصل مندفعاً من بين كفيّ المحكمتي الإغلاق. **وأحسست به حين ارتطمنا يغوص فيه.** فأنّ أنيناً طويلاً، وحاول أن يرتد، إلا إن النصل جذبه من جديد، فأنزل كفيّه ووضعهما فوق يديّ المتشنجتين فوق المقبض وأغمض عينيه. عندها تركت المقبض وارتددت إلى الوراء، كان النصل يغوص في عانته، فوق فخذيه مباشرة. وحاول أن ينتزعه، إلا إن كفيّه اللتين أخذتا تزرقان وترجفان عجزتا عن الإمساك بالمقبض، فانحنى واستند بذراعيه إلى الطاولة، فيما أخذ الدم يبلل سرواله، وينتشر قانياً لامعاً فوق ساقيه. وفي اللحظة التالية، فتح عينيه بوهن ونظر إلي، فاستدرت وأمسكته من كتفيه ودفعته نحو الحائط، فالتصق جسده هناك محنياً بعض الشيء، وقد سقط ذراعاه على جنبيه، فيما ألصق جبينه على الحائط محاولاً أن يبعد المقبض عن الوصول إلى الجدار، ولكنني ثبّت كتفيه بكفيّ، ووضعت ركبتيّ على ظهره، ودفعته نحو الحائط بكل ما فيّ من قوة. وسمعت صوت النصل يغوص في لحمه

بطيئاً ولكن ثابتاً، مرافقاً لصوت خشب المقبض وهو يحك الجدار بضراوة. فشخر كأنه يصحو من نومه، وتناهى إلي صوت نزيز الدم يتدافع حول النصل، ثم انتفض وتساقط وتكوّم بين قدمي الطاولة. **وأضاء شعاع الشمس الضيق المتسرب من النافذة خطاً رفيعاً من الدم** كان يزحف برأس مدبب، وسط بلاط المطبخ الناصع البياض **ودوّى صوت الصمت فجأة، حين أخذت الكلاب** خارج النافذة تنبح نباحاً مسعوراً لا ينقطع. ولم تصمت إلا حين جاءت خطواته، مثلما كانت دائماً خارج ذلك النعش المعلق فوق الجدار: **تدق في جبيني اصرارها القاسي الذي لا يرحم. تدق فوقه مكوماً هناك قطعة من الموت. تدق. تدق. تدق.**

# سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

## روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

## قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

## مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

جسر إلى الابد

## دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



«ما تبقى لكم»، هي تجربة كنفاني الثانية في كتابة الرواية. تأتي بعد «رجال في الشمس» لتحاول أن تعبر عن إرادة الخروج من الذات إلى الفعل، ومن الهموم الشخصية التي تأخذ دلالات عامة إلى الهموم الشخصية التي هي جزء من الهمّ العام. الأبطال الخمسة: حامد وزكريا ومريم والصحراء والساعة، يتمازجون، ويقدمون صورة عن العلاقات الداخلية التي تجعل من الذاتي جزءاً من الموضوعي، والتي تفرض الفعل التاريخي كوسيلة وحيدة للخروج من النفق.

9 789963 610945